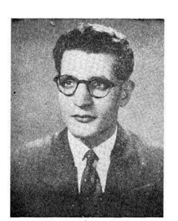


محمد رجب البيومي

تأثير الموشحات في شعراء التروبادور

بقلم محمد رجب البيومي

كان الفصل السابق المنشور بعدد فبراير من مجلة الاديب خاصا بتأثير الموشحات الاندلسية وحدها في الادب العربي وحده أما هذا الفصل فيتحدث عن تأثير الازجال والموشحات في شعراء التروبادور وهو تأثير واضح يرى بالعين ويلمس باليد على رغم مكابرة المكابرين .

والعلاقة بين الزجل والموشح وسبق احدهما الاخر في النشأة الزمنية كانت مجال نقاش علمي لا تغلق وجوهه بل تسفر ادلته عن وجه الحق لمن يناقش الحقائق المجردة دون ان يتعبد بالنصوص !

لقد اشتهر بين الكاتبين ان الموشح قد تقدم الزجل باكثر من قرن ! وعضدهم في ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون في قوله ١ : ٥٢٤ .

« ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس واخذ بـه الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع اجزائه نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقتــه بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعرابا واستحدثوه فنا سموه الزجل . فهذا القول صريح في اسبقية الموشح! ولكننا حين نقرا الموشحات الاولى نجدها تستند الى المركز العامي وهو المعبر عنه أصطلاحا بالخرجة ، وقد نص على ذلك ابن بسام حين قال في الذخيرة عن اول من نظـم الموشحات « وكان يصنعها على اشطار الاشعار غير ان اكثرها على الاعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحـة دون تضمين فيها ولا اغصان » .

فالخرجة اذن عامية غير عربية يحتشـــد لها الوشاح ويبحث عنها اولا ، ليتم الموشحة على هديها فتتفق معه نغما ومعنى ، يقول ابن سناء الملك في دار الطراز ص ٣٢ :

« والخرجة هي ابراز الموشح وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره وهي العاقبة وينبغي ان تكون حميدة والخاتمة بل السابقة ان كانت الاخيرة ... وقولي السابقة لانها التي ينبغي ان يسبق الخاطر اليها ويعملها من ينظم الموشح في الاول ، وقبل ان يتقيد بوزن او قافية وحين يكون مسيبا مسرحا، وقبحبحا منفسحا ، فكيف جاء اللفظ والوزن خفيفا على القلب انيقا على السمع ، مطبوعا عند النفس ، حلوا عند الذوق تناوله وتنوله ، وعامله وعمله ، وبنى عليــه الموشح لانه قد وجد الاساس وأمسك الذنب ، ونصب عليه الراس » .

فكأن الوشاح اذا اراد ان ينظم فكر أولا في الخرجـة العامية ، وجاء بها متفقة مع ما حكاه عنها ابن سناء مـن صفات ، ثم اخذ يدور في فلكها ليرسي قواعد النظم علـى اساسها ! وذلك شيء له دلالته الفنية في قضية السبق بين الموشح والزجل ، اذ ان اصطياد الخرجة موزونـة منسجمة لا يتأتى للوشاح الا اذا كانت هناك اغان متداولة شائعة تقذف بما يريد من خرجات ، وتفتح عليه باب القول ليتخذ منها الاساس كما يشاء ! ولن ينكر أحد وجـود الاغنيات العامية لدى الشعوب ، فلكل مجتمع بدائـي او متحضر اهازيجه واغانيه ! وليست الاغنيـة الشعبيـة الا زجلا منظوما يتردد ويذيع فاذا استلهمها الوشاح فانمـا يقصد الى شيء سابق يحتذيه ! وهذا من البديهة بحيث لا ينكر ، وقد اوضحه الدكتور الفاضل عبد العزيزالاهواني حين قال في كتابه الزجل في الاندلس ص ٥ :

« ونص ابن بسام واضح الدلالة على صلة العاميــة والاعجمية باختيار الموشحة ، وبعمل الوشاح الاول ، وذلك سندنا فيما نميل اليه من تأثر الموشحة بالاغنية الشعبيـة لاننا نفهم مدلول المركز العامي على انه جزء ــ لعله المطلع او الختام او اللازمة ــ من اغنية سابقة اعجب بها الوشاح، ووضع موشحته على وزنها ، واحتفظ بجزء منها في ختام موشحته ليستدل بها على تلحين الموشحة » .

اما راي ابن خلدون في سبق الموشحة ، فلعله يقصـد به تأثير الموشحات في طريقة الازجال ، بعد ان ازدهرت الموشحة العربية واضطر اصحاب الاغنيات الشعبية الى محاكاتها في الطريقة أقفالا واغصانا ! فكأن الموشحات قد طبعت الاغنية بطابعها ، حتى اشتهرت بمحاذاتها واطلق عليها الزجل تمييزا لها عن الموشحة ذات اللفظ الفصيح !! والا فكيف نجزم بان الوشاح يعتمد على خرجة عامية موزونة يحتذيها ! ثم لا نجزم بأن هذه الخرجـات كانت ذائعـة التناول ، والا فمن أين استمدها ، ثم اليست هي الاغنية الشعبية ، وهي بعد زجل منظوم في ابسط الاشكال !

هذا راي قد اعتقدناه واطمأننا اليه ! ثم راينا الباحث المفضال الدكتور احسان عباس يبسطه ويجلوه مدعما مؤيدا

في كتابه « تاريخ الاندلس ــ عصر الطوائف والمرابطين » فيقول ص ٢٢٢ :

« فالزجل بمعناه العام نشأ اولا تقليدا لاغاني السكان الاصليين وبخاصة حين اختلط الفريقان في المدن واشتركوا في اقامة الاعراس والحفلات ، واحتاجوا الى الاغاني الشعبية التي يرددونها في تلك الحفلات وفي مواسم العصير وايام القطاف ، ثم الخطوة التالية وهي محاولة للتقريب بين الشعر المنظوم باللغة الفصحى وبين تلك الاغاني الشعبية التي اصبح النساء والصبيان وطبقات اهل الحرف والعمال يرددونها باللغة الدارجة العربية دون ان يصفوها تماما من الالفاظ الاعجمية التي اقتبسوها من جيرانهم ومخالطيهم ودرجت على السنتهم فاصبحت جزءا من لغتهم » .

فمحاولة التقريب بين الشعر المنظوم بالفصحى والاغاني الشعبية هي ابتكار الموشح في مبدئه والحرص على الخرجة عامية او اعجمية هو ما عناه الدكتور عباس حين قال : « دون أن يصفوها تماما من الالفاظ الاعجمية التي اقتبسوها من جيرانهم ومخالطيهم » وقد نستغرب ذلك حين نجد لغة ما نحفظه من الموشحات فخمة عالية لا تميل الى الركاكة مما يقربها الى اللغة العامية الدارجة ! ولكن الموشحات الاولى التي ابتداها مقدم بن معافى او محمد بن محمود القبري لم تكن ذات لغة فخمة رصينة كما عرفناها بعد لدى عبادة وابن القزاز والاعمى التطيلي وابن سهل ! بل كانت سهلة يسيرة تحكي الطور البدائي للابتداع والمحاكاة ثم توالى الزمن فارتفع بها الى مستوى الاسلوب الرصين لدى كبار الشعراء ! ونخلص من هذا كله بما تقتضيه طبائع الاشياء من الحكم بوجود الاغنية الشعبية اولا او الزجل الغنائي في ابسط حدوده ثم وجود الموشحة العربية ذات اللفظ السلس السهل ثم ارتقاء اسلوبها فيما بعد حتى توازي فخامة الشعر الرصين مع جنوح بعض النظامين الى اختيار العامية عزوفا عن الفصحى ، واطراد النظم بالاسلوبين فصاحة وعامية حتى اشتهر الاسلوب الفصيح بالموشح والعامي بالزجل ! وقد اعقبت فترة ما غلب فيها الموشح العربي دون ان يفقد الزجل وجوده ، ولكن مكانة تأخر فقط ــ ثم اتيح له ان يتزايد ويزيد حتى يكتسح الموشح ! فظن بعض الناس انه انبثق عنه وتفجر من ينبوعه ، والامر على عكس ذلك كما أوضحناه .

وقد اكثر الكاتبون عن الموشحات والازجال من ذكر النماذج المختلفة للموشحة المختومة بالخرجة عامية او اعجمية ! وليس هنا مجال الاستشهاد لامر ذائع ميسور ، ففي دار الطراز لابن سناء ما لو شئنا ان نقتبس منه لاتسع النطاق ، ولكننا نحيل اليه والى امثاله ! بعد ان اوضحنا الصلة التامة بين الموشح والزجل لننتقل بعد ذلك الى اثرهما في شعراء التروبادور ، وهو ما عنيناه بهذا المقال .!

* * *

من المعلوم ان الجدال في الحقائق الادبية اكثر اتساعا وابعد تفريعا منه في الحقائق العلمية اذ ان الذوق من ناحية والافتراض من ناحية ثانية يجدان مجالهما في الدراسة الفنية على نحو اوسع منه في الدراسة العلمية ذات الحقائق المضبوطة ، والحدود القائمة ، وقد اتسع الجدال وتشعبت المذاهب بين المستشرقين من فرنسيين واسبان والمان حول صلة الموشحات والازجال بشعراء التروبادور من مؤيد لهذه الصلة ومعترف بها اعترافا يقوم على النصوص الملموسة ، والوقائع المشاهدة ، ومن منكر يؤول الصريح من القصائد . ويماري في العيان من الحقائق ثم يستسلم الى فروض بعيدة أن وجدت لها مكانا محتملا في التخريج والاستنباط ، فان صمود النصوص المحفوظة لدى المؤيدين مما يهز فروضه المحتملة وتأويلاته المتعسفة ! ومن المؤسف أن من يتعرض للفصل في هذا الموضوع من المستشرقين اللاحقين يذكر الجوانب المختلفة من الراي ثم يحجم غالبا عن ذكر النتيجة الواضحة فيترك الباب مفتوحا لاحتمالات واهية لا تثبت لهبة نسيم .

لقد بحث الاستاذ خليان ريبرا ما بحث حتى اهتدى الى الصلة الواضحة بين شعر التروبادور والموشحات ! وجد هذه الصلة في اكثر من جهة ، وجدها في الشكل الخارجي وفي المضمون الداخلي وفي الثابت من وقائع التاريخ للاشخاص ! وأن جهة واحدة من هذه الثلاث لتكفي في اثبات التأثير ، فكيف بها مجتمعات !

وشعراء التروبادور هم الذين كانوا يحيون في قصور الامراء وابهاء الملوك ليتغنوا بالحب والمروءة على نمط خاشع ذليل يعترف فيه العاشق بهيامه وتفانيه ويرسل عبارات التقديس والاجلال لمعبودته الحسناء فهي سر حياته ومالكة قلبه ! ومصدر الانس والبهجة في الوجود ، نظرة عاطفية منها تحيي ميتا يدب البلى في اوصاله ، واخرى غاضبة تميت اقوى الاقوياء من الفرسان ! ثم اخذوا يطوفون بانحاء اوروبا خلال القرون الاخيرة من العصر الوسيط فينشدون الناس منظوماتهم الغنائية التي جلبوا بعضها من الاندلس ونظموا البعض الاخر على غرارها ، ويقول كثير من الباحثين ان كلمة تروبادور مركبة من كلمتين اولاها كلمة تروب ومعناها الاسباني فرقة ، يراد بها فرقة غنائية وثانيتهاكلمة تدور وهي عربية واضحة واذن فالتروبادور هم فرقة من الشعراء يدورون في البلدان ينشدون اشعارهم الغنائية على وقع القيثار !! هذا الغناء الشجي الضارع من ناحية الشكل قد اتخذ مظهر الموشحات والازجال فمتوسط المقطوعات في اشعارهم سبع وهو العدد الغالب في الموشحة والزجل ! ولكل مقطوعة ما لكل موشحة من الاقفال والاغصان والقوافي على نحو ما لم يعهد من قبل في الشعر اللاتيني ! وقد تخلو مقطوعة من المطلع او المركز كما تخلو بعض الموشحات ايضا !

ونظام الخرجة في اشعار التروبادور كنظامه في الموشح

والزجل وله عندهم من الاهمية والاحتفاء ما له في الموشحة سواء بسواء ، ثم ان مجموع الغصن مع القفل يسمى بيتا عند التروبادور وهو كذلك في الموشحات والازجال .

هذا من ناحية الشكل أما التشابه في المضمون فان أخيلة الشعر العربي ومعانيه التي احتضنتها الموشحات والازجال قد انتقلت هي الاخرى في غـزل التروبـادور فالرقيب والعاذل والواشي ونشأة الحب من اول نظرة ، والتهالك على استرضاء الحبيب وحلاوة الوصل ولذاتـه وقسوة الهجر وفظاعته ! وصلف الحبيبة وكبرياؤها وقسوة فؤادها وتثاقلها المترفع واباؤها الشموخ ! وحيل الرقباء وملامـة العاذلين ، وذهول العاشق وشروده واقباله على الحديث عن محبه ... كل ذلك قد وجد شبيهه في شعر هؤلاء!! وهي عواطف لم تكن ذائعة في غزل اللاتين ، ولن يقول قائل ان الإحساس بالحب عاطفة مشتركة ! فالحب متعدد الالوان والافانين ، وظهوره لدى التروبادور فـي لون الازجـال والموشحات يوحي بتأثره الصريح ! هذا بالاضافة الى قصائد العرب الاخرى غير الموشحات كمقطوعات جماعـة الحـب العذري بالمشرق وقد كانت مشهورة متعارفة لدى ادبـاء الاندلس ! وكالكتب الخاصة بالصبابة العربيـة من مثـل الزهرة والحدائق وطوق الحمامة ! هذه الازجال والموشحات وتلك القصائد العذرية ! مع الكتب العاطفية المشار اليها قد الهمت شعراء التروبادور اتجاههم النفسي ، وجعلت للمراة في نفوسهم من القداسة والاجلال ما نطقت به اشعارهم الذائعة فجاءت ناطقة بالاحتذاء والتشرب !

وذيوع ديوان ابن قزمان مع شهرته الفائقة لدى الباحثين قد جعله عندهم موضع المقارنة ودليل الاقتفاء ! والحق ان الصلة قريبة بين ديوان ابن قزمان وشعراء التروبادور من ناحية الشكل اما من ناحية الموضوع فقد تبدو الصلة بعيدة في بعض وجوهها لان ابن قزمان لم يكن من اربـاب التصون والشرف في غزله بل كان متهتكا مسفا يميل الى الخلاعة واللهو ويدعو الى الاستهتار والاسفاف ! وقد كان ابن عصره دون شك اذ ان قرطبة لعهده قد اخلدت الـى الراحة نسبيا بعد أن كفيت شر الفرنجة وسيطر المرابطون على البلاد فاسكنوا الثوار وبعثوا كثيرا من الاطمئنان واذ ذاك تفرغت القصور للغناء والطرب وماجت الليالي الحالمة بروائـع الاوانس من سبايا القشتاليات والجليقيـات والايطاليات والبربريات وكل منهن فاتنة صداحة ذات لهو وانس ! بل ان العامة في الطرقات كانوا يسمعون الى صدى الغناء في القصور منبعثا من اشجى الحلوق ، وارخـم العيدان ثم يرددونه مصفقين طربين ! ويتحول الليل الـى نهار ذي جلبة وضجيج ! وكان ابن قزمان وليد هذه البيئة وهو صاحب خمر ولهو وعبث ، فلم ينضح زجله بما نضح به الشعر العذري من عفاف وحرمان !! واقتصر تأثيره على الشكل وحده ! وقد ذكر الاستاذ جورج كولان في بعـض ابحاثه ما يستبعد معه تأثير ابن قزمان في شعر التروبادور لهذا السبب بالذات ! ولكنه اعترف بالتأثير الاندلسي وعزاه الى غيره كالاخطل بن نمارة وكتاب طوق الحمامة لابن حزم وموشحات ابن زهر وابن سهل وقصائد ابن زيدون ! (1) والاخطل بن نمارة هذا من رواد الزجل الاندلسي وقد ضاع من التراث فلم يبق لنا منه شيء ، ولكن حديث ابن قزمان نفسه عنه في مقدمة ديوانه قد حفظ للرائد الكبير سبقـه اذ يقول عنه :

« ولم ار اسلس طبعا ، وأخصب ربعا ، ومن حجوا اليه وطافوا به سبعا احق بالرياسة في ذلك والامارة من الشيخ اخطل بن نمارة فانه نهج الطريق ، وطرق فأحسن التطريق، وجاء بالمعنى المضيء والفرض الشريق ، طبع سيال ومعان، لا يصحبه به جهل الجهال ، يتصرف باقسامه وقوافيـه ، تصرف البازي بخوافيه » .

وعبارة ابن قزمان واضحة في تقديره على الاختلال فـي صياغتها تلتمس اعذاره من تحريف او سقط ! واذا كـان الرجل بهذه المنزلة فلا يستبعد ان يكون بين هؤلاء المؤثرين فترن ازجاله وتستفيض قوافيه ويلمح مكانه من قريب .

اما الواقع التاريخي للاشخاص فينطبق بهـذا التأثير نطقا جهيرا لا يشوبه التباس ، اذ ان جيوم التاسع دوق اكيتانيا أقدم من نعرف من شعراء التروبادور ، وهـو ذو صلة تامة بالثقافة العربية ، وقد اشترك في الحـروب الصليبية فرحل الى المشرق سنة ١١٠١ واقام بالشام حقبة وهناك الف العربية وتعلم منها شيئا ذا بال لان المستشرق الشهير ليفي بروفنسال روى عنه في كتابه الاسلام فـي الغرب والاندلس ص ٢٩٦ (2) ملخصا لقصيدة تتحدث عن سيدتين قابلهما في بعض رحلاته وحيته كلتاهما بادب جم ودار بينهما وبينه حوار عابر ، وفي القصيدة بيتان صعب فهمهما على النقاد وقد اهتدى اليها بروفنسال وعرف ان مصدر هذه الصعوبة هو عربية الفاظهما مما يدل علـى ان الدوق على علم بالعربية وان السيدتـين كانتا تعرفانها فخاطبهما الدوق بما يعرفان ! هذا وقد سافر الى اسبانيـا اكثر من مرة وفي سنة ١١٢٠ ذهب الى ارجوان ! هـذه الصلات التاريخية بين رائد شعراء التروبادور وبين الشرق في الشام واسبانيا في الغرب ثم هذه الصلة الادبية فـي نظمه بعض الابيات العربية تؤكد تأثره بموشحات الاندلس وازجالها فاذا نظم بعد ذلك على طريقـة الموشحـات فـي الاغصان والاقفال والتقفية وتفنن في الهيام بالحب علـى نمط قريب من مشارب ذوي العفة والشرف افلا يدل ذلك على تأثير الازجال والموشحات تأثيرا لا يجد شبهة تغيم في عين منصف أمين .

تلك حقيقة يؤكدها مع جوليان ريبر كل من نحا نحوه في تأييد الصلة القوية بين الزجـل العـربي وشعـراء

(1) تراجع مقالات الدكتور حسين مؤنس بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ ففيها افاضة واشباع واقناع . (2) ترجمة الدكتور السيد سالـم والاستاذ صلاح حلمي . (3) الاسلام في اسبانيا ص ١٢٠ .

التروبادور امثال نيكل وتالجرين وروبير بريفو من كبار المستشرقين ويعلن الاستاذ مننددث بيدال اعتقاده الجازم بان الزجل الاندلسي قد انتشر باوروبا بقدر السرعة التي انتشر بها في الشرق ، بدليل ما نظمه جيوم التاسع ولكن معارضيه يواجهونه « بان الدوق وبعض زملائه قد استخدموا تراكيب عروضية تتألف من ثلاثة ابيات مع جزء رابع تتردد قافيته في جميع الابيات لكنهم يهملون استعمال المركز وهو عنصر ثابت في الزجل الاندلسي » .

هذا ما قالوه وقد ذكره بروفنسال في كتابه السالف ص ٢٩٧ ثم شفعه بقوله ص ٢٨٨ :

« وانعدام البيت من جزأين قافيتهما متحدة في الشعر البروفنسي لا يعد في نظر مننددث بيدال دليلا قاطعا لتأييد نظرية المنكرين للتأثير العربي ، وتبريرا لهذا الوضع عمد العالم الاسباني الى تدليل لا يفضي الى الاقناع الكامل فهو يرى ان هذا البيت قد سقط من الشعر البروفنسي خلافا للزجل الاندلسي لان هذا الشعر لم تكن تصحبه الموسيقى لدى انشاده ، وانما كان من شعر البلاط، وينشده تروبادور يحمل آلة موسيقية دون ان يردد البيت احد من الحاضرين وكانوا يقتصرون على عدد قليل من الناس هم السيد والسيدة وبعض الاقارب والاتباع » .

ونحن نعلم ان الموشح والزجل في الادب الاندلسي لم يأخذ طابعا خاصا لا يحيد عنه حتى نبحث عن علة سقوط المراكز في اواسط المقطوعات ! فكل وشاح او زجال كان يجتهد في ابتكاره تكرارا وحذفا وتقفية ووزنا !! والامر في الزجل اسمح وايسر ! فمن الجائز ان تكون هناك ازجال وموشحات لم نرها لا ترى الالتزام التام بالمركز في الوسط او المطلع بل تحتفي به في الاخر فقط ! ونسير الى ابعد من هذا فنقول الا يجوز لجيوم ان يحيد قيد انملة عن نماذج الموشحات والازجال وهل اذا خالفها في شيء ووافقها في اشياء لا يكون متأثرا بها ، ثم لماذا تكون مخالفته النادرة دليلا على عدم التأثر عند هؤلاء ثم لا تكون موافقاته الكثيرة ذات ترجيح وتدليل أن لم تكن ذات جزم وايقان .

وقد وقف الاستاذ جانروي موقفا وسطا بين المعارضة والتأييد ، فهو يسلم باحتمال التأثير فقط ولكنه لا يقطع به اذ ربما كان التركيب الزجلي في رايه مقتبسا من الشعر اللاتيني في العصر الوسط ، والرد عليه من ابسط الاشياء واهونها لان الذين يرون تأثير الشعر اللاتيني مفترضين ، قد عجزوا عجزا تاما ان يثبتوا مثالا واحدا للغناء اللاتيني في الصور الست المختلفة للدور يشترك مع الزجل العربي في نظام ، حتى يقال ان التأثير قد جاء من الاصل اللاتيني ! واذا كان الزجل قد ظهر قبل شعر اول شاعر لاتيني معروف بقرنين من الزمان فلا شك ان الاغنية اللاتينية الحديثة مشتقة من الاغنية العربية الاندلسية لا ان يكون العكس هو الصحيح (٣) .

على ان مما يوقف النظر في هذا الموضوع صراع الباحثين حول شعر التروبادور اذ بدا به تعقيب منحرف عن الحق ، فبعض مؤرخي الالحان ينكرون قيام اي صلة ما بين شعرائهم المنشدين وبين زملائهم من الاسبانيين والفرنسيين ويرون ان شعرهم الغنائي وليد الاغنية الالمانية الشعبية ! وهم في ذلك يتفقون مع منطقهم الذائع في تفضيل مواهبهم وارتقاء مثلهم عن الناس حتى الآريين الذين هم بعضهم ، اذ ان درجات الآرية تتفاوت صعودا وهبوطا وفق درجات الشعوب ! اما المؤرخون الفرنسيون فقد سخروا من الالمان في ذلك لا ليرجعوا الحق الى نصابه بل ليزعموا ان شعر التروبادور نشأ اول ما نشأ في شمال فرنسا لا في جنوبها وكأنهم بذلك يريدون ان يقطعوا كل صلة تمت الى شعراء العرب بالاندلس ! ولكن الحق لا يعدم انصاره بين اولئك وهؤلاء فقد انصف مؤرخو الطليان العرب واقروا ان جذور اشعارهم نبتت في ارض الاندلس ، ولهم كتب خاصة بتفصيل هذا الموضوع وقد استشهد الاستاذ محمد مفيد الشوباشي في كتابه العرب والحضارة الاوروبية ص ١٠٢ بعالمين كبيرين غير من اشرنا اليهم قبل ذلك تحدثا باخلاص عن هذه الحقيقة فذكر قول (بريفو) في اول صفحة من كتابه « الشعراء التروبادور » نشأ لون جديد من الادب في جنوب فرنسا خلال القرون الوسطى بينما كانت ملاحم الاغريق الوثنية في ذلك الوقت هي التي تستثير مشاعر الناس ، وهذا اللون الجديد أجنبي كذلك عن فرنسا وقد جلبه اليها شعراء التروبادور الذين اغنوا به اللغة الفرنسية المحلية ، واحدث في المجتمع الفرنسي الاقطاعي اثرا بليغا بما عبر عنه من عواطف طاهرة سامية ، وذلك بعد ان انف ذلك المجتمع من بربريته متأثرا بالتيار الحضاري المهذب الذي هب عليه من الاندلس العربية بعد ان تهيأ لتذوق الشعر المهذب » .

كما نقل الاستاذ الشوباشي عن « بيرديه » في كتاب « القصة في سبعة قرون » قوله « نشر العرب في الاندلس خلال القرن العاشر الميلادي حضارة جديدة اصيلة ابتدعوا شعرا غنائيا انسانيا حمله شعراء التروبادور الى الشمال ، وتدل المراجع التاريخية على ان القصور الاندلسية بعد ان احتلها الاسبان ، كانت تذخر بشعراء العرب الذين وقعوا في الاسر ، بينما كانت الحرب لا تزال دائرة بين الاسبان والمسلمين ، ومن السخف ان يتجنب مؤرخو الادب الفرنسي هذه الوقائع الثابتة بالادلة المسجلة » .

ومن الاطناب الزائد ان نفيض في امثال هذه النقول المنصفة اذ تحتشد بها المؤلفات الاخيرة شرقية وغربية ولكننا نكتفي بما تقدم لنذكر اثر العرب في خلق روح غزلي جديد يغمر اوروبا ويهب على اقطارها مضمخا بعبير الاخلاص والوفاء والشوق والتضحية بعد ان كانت آدابها السالفة لا تستلهم في ذلك غير الادب الاغريقي وحده وهو في اكثره متجه الى الحب الفاجر وانصراف الزوجة الى العشيق

* * *

عينا حبيبي والحنان

عينـــا حبيبـي والحنــــان
وزهرتــان علــى الطريــق
قــد ارشدتنـي للطــريــق
وكنت اجهـل مــا الطريــق

عينـــا حبيبـــي فيهمـــا
كــل الرضـــا ، كــل الامان
فــي كــل عيـن منهمــا
نبــع تفجــر بالحنـــان

والــزهرتان علــى الطريق
تنـــوران لـــي الطريـــق
طــوقــا نجــاة أومــآ
للشــط ، فــانتعش الغريق

مــاذا يكــون العمــر لــو
لــم تبــرز العينــان لــي
مــاذا يكــون ســوى الضياع
ســوى احتضــار الامــل

مــاذا يكــون الكــون لــو
لــم تنــمُ فيــه الزهرتان
هــل كنــت احتمل الحيــاة
بكــل اعبــاء الــزمــان

انــا لست ارجــو مــن حياتي
غــيــر مــا قــد كــان لــي
عينــي حبيبــي ، والحنان
ودفـقــة مــن امــل

القليوبية — عبدالمنعم عواد يوسف

دون الزوج وملاحم اليونان تضج بشهوة الجسد واتقاد الرغبة واغتصاب الحسان وازهاق الارواح في استهتار وما ابعد ذلك كله عن شعر الحنين والضراعة والعفة الذي بعثه الاندلسيون ثم تأرجت به اوروبا حين حملته نسمات التروبادور .. اجل كانت اوروبا لا تعرف في اشعارها غير الهة الملاحم الاغريقية ووحوش الجبال الاسطورية وخرافات الغابات المليئة بالاشباح والفيلان والبحار المزدحمة بالجن والمردة ثم انقلب المسرح فجأة على يد الاندلس فكانت كتابة ابن حزم واشعار ابن زيدون واغاريد بني عذرة لحونا جديدة توقظ الارواح الغافلة وتتجه الى قليل المشاعر الانسانية ، وتشريح النوازع العاطفية ، وتجعل قلوب العاشقين اقطارا فسيحة تمتلىء بالشوق والاسى والشجن ، وتمور بها عواطف الحرمان والقنوط والحيرة ! مما مهد لادب جديد يتصل بالنفس الانسانية ، ويرى به القارىء هواتف صدره وهمسات جوانحه ونبض عروقه ! وتلك كانت وما زالت رسالة الادب الحي في لبابه الصميم !

ومما يدهش حقاً في مجــال المقارنـــة اقتفاء شعراء التروبادور آثار الاندلس شبرا بشبر ! حتى فيما يستغرب فيه الاقتفاء ويستبعد فقد اتجه الزجل الصوفي على يد « الشتشتري » من الموضوعات الدنيوية الى الآفاق العلوية فانطلق يمجد الخالق الاعظم ، كما سبقت موشحات ابن عربي الصوفي الذائع الصيت الى هذا الضرب من الهيام الروحي ! فظهرت آثار ذلك كله في شعر التروبادور اذ اصدر الاديب المسيحي رامون لول وكان يعرف العربية معرفة جيدة مناجاته الالهية في رسائل المحب والمحبوب ! بل ان تقليد التروبادور للاندلس لم يقف عند المجال الادبي وحده اذ تعداه الى اسلوب الحياة ! فيذكر المؤرخون مثلا عن ابن قزمان انه في خريف حياته تنسك وتزهد ولزم المسجد فارغا للصلاة والتسبيح والتوبة والخشوع ، وهم يذكرون نظير ذلك عن زعيم التروبادور جيوم التاسع حيث تصنع التوبة والزهد في خواتم أمره ولجأ الى الدير ضارعا تائبا ! وكم لهما من اشباه .

ولا نحب ان نختم هذا الباب دون ان نمتـــع القارىء العربي ببعض ما نفحنا به شعراء التروبادور حين حاكوا الحب العذري فذابوا ضراعة ولهفة وحنينا وانطلقت شواردهم السائرة تذكر بابن داود وعروة وجميل وكثير وقيس وابن حزم !! ننقل ذلك عن ترجمات الباحث العربي الدكتور حسين مؤنس فهو من اغرف كتاب العرب باللغة الاسبانية ومن اقدرهم على استشفافها وتعريبها مقدرة تسدي الى الحقائق الادبية جزيل النفع ، وتمدها بالجيد النفيس ! وها هي ذي بعض المترجمات :

« ان ما تبعثه الحبيبة من الغبطة في النفوس ليشفي العليل ، واذا غضبت على احد فغضبها كفيل ان يقتل اوفر الناس صحة وشبابا ، وجمالها يسلب اعقل العقلاء لبه ، ويفقد اجمد الناس جماله ، ويستطيع ان يحيل اوفر المهذبين شرير ذميما يجعل من الشرير انسانا كريما » .

« وعندما يأخذ نهار الربيع في الطول ، اجد في نفسي لغناء الطير وقعا جميلا فاذا انقطع عني هذا الغناء ، تحسست في اعماق نفسي آثار حب بعيد . فتجدني اذ ذاك غريقا في الفكر ، حزينا خافض الرأس ، اذ ذاك لا اجد لغناء الطير لذة ولا للزهد فتنة » .

« ليس بعجيب ان يكون غنائي اجمل من غناء اي انسان غيري اذ انا اشد الناس خضوعا للحب وانقيادا لامره فان قلبي وجسمي وفهمي وحسي وجاهي وقوتي كلها رهين بـأمـره » .

الفيوم ـ دار المعلمات — محمد رجب البيومي

غـــربـــة

●

من يدي كـر الزمـان
دوامات عظـام
موجـه خـط الظـلال
ينحنـي رعـب الخيـال
وأسير في ثرى ارض الغريب
الاهـل فيهـا وجـه جديب
والترب فيهـا مثـل القديد
كنـت بالامس حنينـا كالرقيب
اشتـاق فيهـا للقريب
واليـوم لا وجـه حبيـب
لو رآني يغدو وجهي نـوار

*

(هنـاك فـي برايتون)
بصـارة شمطاء مثـل المحال
في بابهـا عناكب للقفـار
مغمورة مكدوسـة بالرمال
لهـا الحلـى والدّل
عريضة الابتسـام
انامل صفراء ، عـين ونار
دارت علـى باهمـين
ماضي ، حاضري مدى اصبعين
معقـد يحتـال كالثعلبين
ثعبانه يطـير فوق البحار
يغوص ، يمتص لآلـي المحـار
وجـه حبيبي مطـل جمال
امـي صوتهـا يعـم الديـار
ونقالة لهـا مداها الزمان
خط الزمـان

كالسراب

انغامها صداحـة كالكنـار
تلفنـا تحمينا غـب انهيـار
فتنتقي لنـا زهور الحياة
وتسحق الشوك المرير العنيد
يـا امي يا قلبان

ظلـي نحيـل
خطوي عبـث
يحفر بالدود القلوب
يمشي بهـا الى العدم
هناك دربنـا سقيم
هل تعرفين
يـا امي يا قلبان
لـو تعرفـين

*

(قيس وليلى)
مرا بنـا لو تعرفين
(قيـس)
في راحتيه عقرب بلا سموم
فـي عنقـه
أفعـى تقيـم
أنثـى تظـل حـائرة
بـلا يقـين
قلـب الذكـر
كمثل ((لبرنث)) قديـم
لـو تعلمـين
يدور كالحصن اللعـين
آثـامه مثـل الجحيم
امي امي لو تعلمين
في قلبنا مـر الفـراغ
سؤالنـا سر اليـم
اراه كالشرق القديـم
بعقـدة دون الحلول
لـو تعلمـين
فيـه عقـد
مثـل الذكـر
فيه قضايا تستكـين

ثريا ملحس

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي
من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

يعترف للعالم والفيلسوف ريني ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) بانه موجد الفلسفة الغربية الحديثة ، لانه اول من نقل الاهتمام في الفلسفة من البحث في العالم كما هو الى البحث في امكان معرفة العالم اصلا . ومع ان الفلاسفة الذين سبقوه بحثوا في مشكلة طبيعة المعرفة ، غير انه وجد منذ حداثة سنه ان كثيرا من هذه الآراء السابقة لا يركن اليها ويجب نقضها دفعة واحدة ولكن على اساس منطقي فلسفي . ومن هنا اخذ ديكارت يبحث في مصادر المعرفة الاصلية ، ورأى ان المعرفة في هذا العالم تأتي عن طريقين : طريق الاحساس وطريق العقل ، وهما في مقابل المادة والعقل اللذين يتألف منهما هذا العالم . (وديكارت من المؤمنين بالثنائية اي بوجود المادة وبوجود العقل او الروح ، مع وجود رابط ثالث بينهما او فوقهما وهو الله .

وبدأ بحثه بطريقة الشك في كل شيء ، وصرف همه في البحث الى نقض فلسفة القرون الوسطى والفلسفات السابقة واعتبر ان التجرد عن كل فكرة سابقة هو الخطوة الاولى نحو الوصول الى الحقيقة المجردة البحتة . وخرج من هذا الاعتبار الاولي اي من الشك الى ان الانسان اذا شك فهو مفكر ، واذا فكر فهو موجود . ومن هنا جاء قوله المشهور : انا افكر فانا موجود ، وهو القول الذي خالفه فيه الوجوديون ، كما ذكرنا في السابق ، وقالوا بتغليطه ورأوا ان القول الصحيح هو : انا موجود فانا افكر . فالفكر عند ديكارت هو الحقيقة الاولى، في حين ان الحقيقة الاولى عند الوجوديين هي الوجود . وتدرج ديكارت في البحث من اثبات موجوديته الى اثبات وجود الله واثبات وجود العالم . وفي اثناء هذا البحث تعرض ديكارت الى امكان الاعتماد على الادراكات الحسية وعلى الاستنتاجات العقلية، فراى ان الاحساس لا يعتمد عليه في الوصول الى الحقيقة كما ان التفكير قد يتطرق اليه الغلط والانحراف بدليل وجود اعتقادات متباينة في الموضوع الواحد . ولكن الذي لا شك فيه في رأيه ان التفكير شيء لا ريب فيه وانه حقيقة واقعة ، وهو الامر الوحيد الذي يمكن الانسان ان يؤمن به . فهو يقول :

« ومن ذلك استنتجت انني كنت جوهرا تكون ماهيته او طبيعته من التفكير فقط ، ولا يحتاج ليكون موجودا الى مكان ولا يتوقف على اي شيء مادي ، وعلى ذلك فان (انا) اي العقل الذي به اكون ما اكون ، متميز بكليته عن الجسم » .

فالعقل في راي ديكارت هو الجوهر ، والاشياء الفكرية كالشك والفهم والاثبات والانكار والارادة والرفض والخيال والادراك كلها اعراض ، بمثل ما تكون الصلابة واللون والشكل اعراضا للطاولة التي يكتب عليها . فكما ان اعراض الطاولة لا يمكن ان تكون الا اذا كانت الطاولة ، كذلك الاشياء الفكرية لا وجود لها الا بوجود العقل .

وفي هذا شبه كبير براي الفيلسوف الالماني هيكل (١٧٧٠ – ١٨٣١) الذي يقول ان ما يعبر عنه بكلمة (انا) هو فكر ، وان هذا (الانا) هو مفكر ، والشخص الموجود والفكر شيء واحد . ويزيد على ذلك هيكل فيقول انحقيقة الاشياء ليست الا فكرا . ولتوضيح هذا القول يجب ان نرجع قليلا بالبحث الى فكرة الماهية او الذات . فان الذي نراه ونحس به في هذا العالم هو مظاهر الاشياء او اعراضها ولا بد لهذه المظاهر او الاعراض من اساس تقوم عليه وهو الماهية . ولنأخذ مثلا مادة من المواد . فنحن نعرف لونها وشكلها وصلابتها وغير ذلك من الاعراض التي تدرك عن طريق الحواس . ولكن لمعرفة هذه المادة معرفة اوفى نلجأ الى تفكيكها او تحليلها ونقف على العناصر المكونة لها .

وقد نقف هنا ونكتفي بهذا القدر من المعرفة . ولكن هذا لا يرضي ، ونشعر باننا لم نصل الى اساس الحقيقة . ولكن اين الحقيقة ؟ هي موجودة ونشعر باطمئنان بانها موجودة، ولكننا لا نعرفها بالحس ، وانما نعرفها بالفكر ، فهيموجودة في الفكر على شكل صورة ذهنية ، فهي اذن فكرة . ولعلنا نتذكر هنا ما قلناه في مقال سابق عن راي الفيلسوف الالماني كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤) في تكوين هذا العالم . فقد قسم هذا الفيلسوف الحقيقة الى(١) حقيقة ظاهرة وسماها Phenomenon و(٢) حقيقةباطنة كنهية وسماها noumenon فالحقيقة الظاهرة انعكاس للحقيقة الباطنة ، ونحن لا نعرف من الحقيقتين الا الحقيقة الظاهرة فقط ، وليس فيالامكان معرفة الحقيقة الباطنة . ولكننا نعرف انها موجودةمنطقيا، لان العرض ، وهو الظاهر ، لا يقوم الا بالجوهر والماهية . فاين اذن هذه الماهية ؟ نحن لا نعرفها . ولكنها في الفكر . فهي فكرة . وعلى هذا فان هيكل وكانت من قبله يقدمان العقل وحده على غيره ، وهذا ما يخالف فيه الوجوديون ، بل هو ما يخالف فيه الفيلسوف الالماني الاخر نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) ، ويخالف فيه بالطبع كيركيغور . ولكن نيتشه ، بمعارضته لآراء هيكل وغيره من النظريين ، وضع نفسه في مصاف الرواد في الفلسفة الوجودية مثل باسكال الفرنسي ١٦٢٣ – ١٦٦٢ و هسرل الالماني ١٨٥٩ – ١٩٣٨ وبالطبع كيركيغور . ولعله من المفيد هنا ان نلقي نظرة على فلسفة باسكال الوجودية قبل المضي في بحث الحرية وحرية الاختيار ، وقبل استعراض راي نيتشه في ذلك .

بليز باسكال عالم رياضي وفيلسوف فرنسي . له كتاب باسم « افكار » يعتبر بانه مقدمة مفيدة للفلسفة الوجودية، لانه يتعرض في بعض ابحاثه الى امور يتكرر ذكرها في

ابحاث الوجودية . من ذلك مثلا انه يدعو الى معرفة الانسان نفسه في وضعه المحسوس المادي ، ويشك في مقدرة العقل والعلم على معرفة حقائق الوجود النهائية ، ويصف كينونة الانسان في هذا العالم بانها لا شيء ، ويعتبر الانسان بانه لغز محير يتأرجح بين الروح والجسم ، فلا الروح تفهم المادة ولا المادة تفهم الروح ، وهما أعجز من ان يفهم كل منهما نفسه . وفي احدى اجزاء هذا الكتاب ينظر باسكال في عدم تناسب الانسان مع الكون . فالعالم يحتوي على الكبير الذي لا نهاية لكبره ، وعلى الصغير الذي لا نهاية لصغره . فالنجوم والكواكب والمجرات والمسافات بينها لا يمكن ادراك جسامتها وعظمها ، وكذلك الحيوانات الصغيرة أو الجزئيات المادية لا يمكن الوصول الى تقدير صغرها المتناهي . فالانسان واقع بين هذين الطرفين : بين اللانهاية في الكبر واللانهاية في الصغر ، في وضع يتأرجح بينهما ، لا يستطيع معرفة الكبير ولا معرفة الصغير ، فهو مضطر الى معرفة نفسه وما حوله في هذا النطاق الضيق . لهذا يدعو باسكال الانسان الى معرفة نفسه اولا ، لان الانسان لا شيء بالنسبة الى اللامتناهي في العظم وهو كل شيء بالنسبة الى اللامتناهي في الصغر . وكأن الانسان يعيش بين طرفين معدومين : الطرف المتناهي في الكبر والطرف المتناهي في الصغر ، والطرفان معدومان بالنسبة الى الانسان لانهما لا يمكن ادراكهما ، ولا بد للانسان من مقدرة لا نهاية لها في العظم لادراك هذين الطرفين ، وهذه القدرة غير موجودة . ولذلك يجب على الانسان ان يعرف حدوده ويقف عندها . فالانسان شيء ولكن ليس كل شيء . ومن طبيعة وجود الانسان انه لا يستطيع معرفة المبادىء الاولى الاصلية التي تنبع من العدم ، ولا يستطيع معرفة الجسامة الغير المتناهية بالنظر الى حقارة وجوده . وكما ان الانسان بجسمه المادي منحصر بين الطرفين اللامتناهيين ، كذلك العقل منحصر بين طرفين ، فهذا الانحصار في كل شيء هو العلامة الفارقة لوجود الانسان والدلالة الواضحة على ضعفه ومحدوديته . ومعنى ذلك أن الطرفين بالنسبة الينا كأنهما غير موجودين ، ونحن بالنسبة اليهما غير موجودين. ونحن نتأرجح بين العلم والجهل ، ونتطوح في هذا الامتداد الشاسع ، ننساق على غير هدى بدون يقين . وكلما ظننا اننا قد استوثقنا من شيء ، فان هذا الشيء سرعان ما يزوغ منا ويخذلنا في ثقتنا به ، واذا تبعناه للاهتداء به تلاشى عن انظارنا الى الابد . وهكذا فاننا لا نطمئن الى شيء يبقى معنا . هذه هي حالتنا في هذا العالم . ومع ذلك فاننا لا ننفك عن السعي لايجاد مكان ثابت نرسو عليه ولا نقلع عن البحث عن اساس راسخ نبني عليه برجا يوصلنا الى العلم النهائي . واعظم من ذلك ان العقل الذي معنا ينخدع دائما بالمناظر المتبدلة ، ومهما بلغ هذا العقل من العلم . فعلمه بالنسبة الى اللانهاية كلا شيء ، وهو اشبه ما يكون بكمية محدودة بالنسبة الى كمية لا نهاية لها في المقدار ، او كنسبة صفر الى كمية ما . ولو درس الانسان نفسه حق دراستها لادرك محدودية قدرته على فهم الكون ولعرف عجزه عن المضي في هذه المعرفة . اذ كيف يستطيع الجزء معرفة الكل ؟ والذي يكمل عجزنا عن معرفة الاشياء في هذه الدنيا هو ان الاشياء في ماهيتها بسيطة ، ونحن مركبون من طبيعتين متنافيتين وهما الجسم والروح . وبدلا من ان نقف على حقيقة الاشياء في بساطتها نجدنا نضفي عليها افكارا وصفات من عندنا غريبة عنها . فنحن لا نستطيع ان نتصور ما هي المادة ، ولا ما هو العقل ، بل ولا ما هي هذه العلاقة القائمة بين الجسم والروح . ومع ذلك كله فالانسان هو كذلك ، ويجب أن يقبل بوضعه هذا في الحياة .

ويختم باسكال هذا الجزء من تأملاته بقوله : « اذا ما فكرت في المدة القصيرة من حياتي ، وانا مغمور في اللانهاية من قبل ومن بعد ، وفي الفراغ القليل الذي املأه ، وانا في غمرة هذا الفراغ الشاسع الجسيم الذي لا اعرف عنه شيئا ولا هو يعرف عني شيئا ، اصابني الهلع وتملكني العجب من كوني هنا وليس هناك ، اذ لا يوجد سبب يعلل الوجود هنا لا هناك ، او الكون في هذا الحين دون ذاك الحين . من الذي وضعني هنا ؟ بامر من وبتقدير من قدر لي هذا الزمان وهذا المكان ؟ »

اقوال باسكال هذه شبيهة باقوال كيركيغور التي كنا اوردناها في مقال سابق . ويجدر بنا ان نعيدها في هذه المناسبة . يقول كيركيغور : « يغرز الانسان اصبعه في التربة ليعرف من رائحتها في اي البلاد هو ، وانا اغرز اصبعي في الوجود فلا اشم منه رائحة . فاين انا ؟ ومن انا ؟ وكيف جئت هنا ؟ وما هو هذا الشيء الذي نسميه بالعالم ؟ وما معنى هذا العالم ؟ ومن هو الذي اغواني حتى وقعت في هذا الامر ، ثم تركني هناك ؟ كيف جئت الى العالم ؟ لماذا لم استشر في ذلك ، ولماذا لم اعرف بعاداته وتصرفاته ، زججت بين الصفوف كما لو انني اشتريت ممن اختطفني ، من تاجر بالنفوس ؟ كيف حصلت على هذا الاهتمام بهذه المهمة الكبيرة التي يسمونها بالحقيقة ؟ لماذا ينبغي ان يكون لي اهتمام بها ؟ وهل هي مهمة خاصة ؟ واذا كنت مرغما على المشاركة فيها ، فاين الدليل الذي يوجهني؟ الى اين اتوجه بشكواي ؟ اذا كان على الانسان ان يأخذ العالم كما هو ، أفليس من الافضل ان لا يعرف الانسان هذا العالم ما هو ؟

هذه القضايا المهمة ــ قضية الوجود في هذا العالم ، وقضية الغرض من هذا الوجود ، وقضية الموت بعد انقضاء العمر . وقضية التخيير والتسيير ــ التي هي اشد مساسا بالانسان اهم ما يشغل بال الوجوديين . ومع ذلك فهي ابعد ما تكون عن فهم الانسان وادراكه مهما حاول ذلك . هي قضايا لا يدركها العقل ويعجز عنها التفكير الانساني ، وهي من الاسرار الغامضة التي لا تقبل الحل . ولكنها في الوقت

نفسه تشير الى وجود معنى خفي لكل منها يقصر عن العقل في الوقت الحاضر وقد يصل اليه فيما بعد ، او انها تشير الى معنى يقصر عنه العقل مطلقا في الوقت الحاضر وفي المستقبل . فالوجوديون بين امرين او بين طرفين ، كما يقول باسكال . ففريق منهم يرى أن هذه القضايا الحيوية تخفي وراءها معاني اساسية وحقائق نهائية يجب السعي لادراكها ، وفريق آخر مثل كيركيفور وياسبرز وباسكال يرى ان القضايا تخفي وراءها معاني وحقائق يقصر دونها العقل . والذي قوى حجة الفريق الثاني ان العلم نفسه قد بين على ان الطبيعة تسير على غير نظام وبدون اتساق ، عرضة للعوارض والمؤثرات الهوجاء . في حين ان العقل السليم الذي نعرفه يتطلب ان يكون العالم سائرا على نظام وقواعد معقولة . فنظرية أل Quantum قلبت الرأي العلمي راسا على عقب ، واظهرت ان الطبيعة لا يمكن ضبطها بقانون يمكن بواسطته التنبؤ عن التغييرات او التطورات بصورة موثوق بها . ومن ذلك ايضا نظرية النشوء والارتقاء التي ترى ان حركة التطور في الكائنات الحية تسير بتأثير قوى عمياء وبفعل العوارض الشاذة . ونظريات اصل العالم هي من هذا القبيل كذلك ، ومنها نظرية هويل Fred Hoyle التي تقول بان المادة مخلوقة من العدم . واذا اضفنا الى هذه كلها نظريات التقدير والحرية في سلوك المادة وسلوك الانسان تبين لنا ان الانسان لا يزال بعيدا عن ادراك الحقيقة بل ان الحقيقة ، كلما ظن الانسان انه اقترب منها ، تزوغ عنه وتتلاشى . فليس في الوجود شيء محقق ، وليس فيه شيء ثابت . وعلى هذه الحقيقة المرة يبني الوجوديون فكرتهم بان الوجود الشخصي هو الذي لا مراء فيه ، وهو الاساس الذي يجب ان يبنى عليه كل شيء في هذا الوجود ، حتى ان الدين يجب ان يفسر تفسيرا وجوديا ، كما يقول الفيلسوف الديني بلطمن . وما دام هذا حال الانسان من حيث انه عاجز عن فهم الحقيقة في الوقت الحاضر ، سواء ظن انه سيعرفها أو ظن انه لن يعرفها ، فيجب عليه أن يعيش حياته كما هي ، وان يقلع عن السير وراء برق خلب ، وقد كان الانسان في السابق اقرب الى السعادة والطمأنينة ، حينما كان يؤمن في الغرب بالطمأنينة الدينية القائلة بان الله هو العلة الاولى وانه هو المسير لهذا الكون لقصد حكيم . من هذه النظرية كان البدء بالتفكير في هذا العالم ، وعلى أساسها توصل الانسان الى حلول لمشكلاته . ولكن النظرية العلمية التي ثبتت جذورها في الغرب منذ القرن السابع عشر بتأثير العرب اولا عن طريق الفيلسوف الانكليزي بيكن ١٥٦١ — ١٦٢٦ عكست التفكير من الاستنتاج Deduction الى الاستقراء Induction وجرى الاستدلال بالطريقة العلمية المعروفة من الجزئيات الى الكليات ، واتجه الانتباه الى البحث والتحقيق في الظواهر والوقائع اولا . ومن هنا انتقل الانسان في تفكيره الى العالم الخارجي ، ولم يعد يتلقى الوحي من عقائده واعتباراته الخاصة . وتمادى به الامر الى ان النفس في الامور الخارجة عن نفسه ، فاصبح غريبا عن كينونته وموجوديته . وهذا هو الذي افزع الكثيرين ، وعلى راسهم الوجوديون ، فاسرعوا الى انذار الانسان من مغبة المصير ، فدعا هسرل الى العودة الى الاشياء ودعم الانغماس في حماة التفكير المجرد المثالي الذي يحمل الانسان على التحليق في جو الخيالات والتظنيات الفكرية ويجعل من العالم المادي عبارة عن صورة ذهنية مجردة ، كما جرى مع هيكل .

وقد كنا في مقال سابق قد ذكرنا شيئا عن الفيلسوف الالماني نيتشه في بحثنا عن الوجودية ، ولم نستوف الكلام فيه ، وما قلناه عن باسكال وعن تطور الفكر في الغرب يذكرنا بناحية اخرى من نواحي فكر نيتشه في هذه المناسبة ، ويجدر بنا في المقدمة ان نعرض الى تعريف او تعريفين للفيلسوف الوجودي ، فالفيلسوف الوجودي (١) اما ان ينشغل في تحليل طبيعة الوجود الانساني و(٢) اما ان يعمل على تنبيه غيره الى وجودهم والى ضرورة الحرية في حياتهم ، فاذا كان الفيلسوف الوجودي مهتما باحدى هاتين المهمتين او بكلتاهما معا ، فان الفلسفة الوجودية عندئذ لا تكون مقتصرة على القرنين التاسع عشر والعشرين ، والدليل على ذلك ما ذكرناه سابقا عن الفيلسوف الاغريقي القديم سقراط الذي كان يدعو الانسان الى معرفة نفسه ، فسقراط من هذه الناحية فقط يمكن اعتباره فيلسوفا وجوديا ، ولكن نيتشه الذي نحن بصدده الان لم يكن وجوديا بالضبط اذا اخذنا بعين الاعتبار التعريف الذي ذكرناه قبل قليل للفيلسوف الوجودي ، ومع ذلك فقد ابدى نيتشه بعض افكار يمكن اعتبارها وجودية ، فدعوته الى القوة واعتباره ارادة القوة لدى الانسان هي الدافع الاول امر يقربه كثيرا من الفكرة الوجودية ، ثم ان نيتشه يرى ان المخاطرة في هذه الحياة هي قوام الحياة ولذتها ، وهذا يقرب من قول الوجوديين بان الخطر هو الذي ينبه الانسان الى وجوديته وكيانه ، وهو يعتبر الحياة الدنيا مقدسة دون غيرها ، ولا يرى الراي الديني القائل بان هذه الحياة الدنيا هي استعداد للحياة الاخرى التي هي مقدسة دون غيرها ، وقدسية الحياة في هذه الدنيا تبرر ما يلاقيه الانسان من عذاب وشقاء في اثنائها ، ويجب على الانسان ان يقبل بهذا الوضع لان الحياة من معناها ان تكون عذابا وشقاء ، وهذا ايضا يوافق عليه الوجوديون عموما ، وفي مقدمتهم الاديب الروسي دوستويوفسكي ، كما بين ذلك فاتاي في كتابه « الانسان وحياته المفجعة » وكذلك اونامونو في كتابه « معنى الفجيعة في الحياة » ، ويشير نيتشه ايضا الى نقطة اخرى ألمع اليها باسكال وهي ان الانسان ليس له آفاق ابدية ولا نظرات محددة يركن اليها ، لان الفكرة التقليدية التي ورثها الانسان في تعليل هذا الكون آخذة بالاضمحلال في العالم الغربي .

لندن — حسن الكرمي



اشبيلية

●

وجدي باشبيلية ابقى ... فاكتم هواي وعاطني صدقا

انطونيو لم يدر ما خبري ... وانا عشقت فتاته سبقا

المادولينا وهي سابية ... كانت دليلي تعرف الطرقا

قدسية هي باسمها زهدت ... وتدلهت بجمالها عشقا

قدري لقد وصل الفؤاد بها ... سلسلته فوجدته عرقا

عربية في وجهها شبهي ... هلا رددت لها الهوى شرقا

شاهدت آثار الجدود بها ... وتركت احجارا لما تلقى

حنت الى وطني لتنشقه ... والشام عطر امية حقا

لكن انطونيو فرى كبدي ... بحسامه واجتاحني اشقى

قالت تعال اريك مأثرة ... بلدي بها في دهره يرقى

في حلبة الثيران كان دمي ... وحشاشتي زهقت بها زهقا

فرمى المقاتل نحو فاتنتي ... ـ واغتال ـ قبعة حوت صعقا

سأعود لا القى سوى حجر ... من قومي الماضين يستبقى

تلك الجرلدا وهي فرقدنا ... في الارض ليت دموعنا تسقى

في برجها جرحي اضمده ... جرحي يفوق قياسها عمقا

ساصيخ للتكبير ينشده ... صوت ، وراء عصوره ، غسقا

وتمر بي يوما متيمتي ... في ثوب راهبة لوت عنقا

لترى فتى قد شاب مفرقه ... لكنه لم يحسب الفرقا

وتسير نحو مراقد سكنت ... اظلال سرو ، تبتغي رفقا

تضع الازاهر فوق عاشقها ... وفؤادها متاجج حرقا

دمشق ... زكي المحاسني

يوسف النبهاني – محمد الصالح
عثمان الطباع – محمد الحسيني

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الشيخ يوسف اسماعيل النبهاني

ولد في قرية ـ اجزم ـ بلواء حيفا عام ١٨٤٩ وسافر الى مصر عام ١٨٦٦ طلبا للعلم وعاد الى عكا عام ١٨٧٢ ودرّس فيها وفي مسقط راسه ، وفي عام ١٨٧٣ تولى نيابةالقضاء ب «جنين» لواء نابلس وفي عام ١٨٧٦ قصد الآستانة فلبث فيها حوالى ثلاث سنوات محررا في جريدة « الجوائب » وتصحيح الكتب العربية التي تطبع فيها ثم عين قاضيا في كوى سنجق من بلاد الاكراد وعاد الى الاستانة الى ان عين رئيسا لمحكمة البداية في اللاذقية وبعد خمس سنوات تولى رئاسة محكمة الجزاء بالقدس ، وبعد فترة وجيزة ترقى الى رئاسة محكمة الحقوق في بيروت وامضى فيها ما يزيد على عشرين سنة ، ولما اعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨ جاور بالمدينة المنورة متبركا بقبر رسول الله (ص) ولما اعلنت الحرب الكبرى وثار الشريف حسين بن علي على الاتراك هاجر اهل المدينة فهاجر معهم وعاد الى اجزم مسقط راسه .

كان النبهاني الكبير هذا عالما مشاركا في كثير من الفنون وشاعرا مجيدا ، وزاده ملكة واقتدارا على الكتابة والانشاء بعبارة فصيحة عالية خالية من الركاكة اشتغاله مدة في تحرير جريدة « الجوائب » .

وفي التاسع من رمضان ١٩٣٢ توفي بقريته ودفن في مقبرتها .

نموذج من شعره : ترك النبهاني مجموعات من الاشعار النبوية الجامعة بين الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية ، ولو زاول الادب ـ مع تبحره فيه وتمكنه منه نظما ونثرا ـ لكانت لادبنا المعاصر ثروة ضخمة . وترك كذلك قصائد في مدح بعض المسؤولين نظمها في صدر شبابه واعتذر عنها بان « الشعر صنعة لاظهار المهارة والحذق ، لا للاخبار بالحق والصدق » .

ومن القصائد الوطنية التي خلفها هذا الرائد العربي قصيدة مطولة نظمها بعد ايابه من استانبول وقد صور فيها الهوان والزراية التي يلقاها العربي في عاصمة الخلافة الاسلامية ومنها قوله :

ويممت (دار الملك) احسب انها ... الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فالفيت فيها امة عربية ... يرى الترك منها ـ امةالزنج ـ اكرما
وما نقموا منا بني العرب خلة ... سوى ان (خيرالخلق) لم يك (اعجما)
بني الترك اني ما تكلمت هاجيا ... ولكن قلبي من جفاكم ... تكلما !

من آثاره القلمية : ١ ـ شواهد الحق ، بالاستغاثة بسيد الخلق . ٢ ـ الرائية الصغرى : قصيدة طويلة في هجاء السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا ، ولمحمود شكري الالوسي كتابان في الرد على النبهاني الاول « غاية الاماني في الرد على النبهاني » والثاني « الآية الكبرى في الرد على الرائية الصغرى » . ٣ ـ جامع كرامات الاولياء (مجلدان) . ٤ ـ تهذيب النفوس (مختصر من ـ رياض الصالحين ـ للنووي) . ٥ ـ السابقات الجياد ، في مدح سيد العباد . ٧ ـ هادي المريد الى طرق الاسانيد . ٨ ـ الفضائل المحمدية . ٩ ـ الاساليب البديعة ، في فضل الصحابة واقناع الشيعة . ١٠ ـ منتخب الصحيحين . ١١ ـ الشرف المؤبد لآل محمد . ١٢ ـ وسائل الوصول الى شمائل الرسول . ١٣ ـ افضل الصلوات على سيد السادات . ١٤ ـ الانوار المحمدية (مختصر من ـ المواهب اللدنية ـ للقسطلاني) . ١٥ ـ النظم البديع ، في مولد الشفيع . ١٦ ـ طبيب العزاء ، في مدح سيد الانبياء . ١٧ ـ الاحاديث الاربعين ، في فضائل سيد المرسلين . ١٨ ـ الاحاديث الاربعين ، في امثال افصح العالمين . ١٩ ـ حجة الله على العالمين ، في معجزات سيد المرسلين . ٢٠ ـ خلاصة الكلام ، في ترجيح دين الاسلام . ٢١ ـ رياض الجنة ، في أذكار الكتاب والسنة (اربعة اجزاء . ٢٢ ـ المجموعة النبهانية ، في المدائح النبوية . ٢٣ ـ نجوم المهتدين ، ورجوع المعتدين ، في اثبات نبوة سيدنا محمد سيد المرسلين ، والرد على اعدائه اخوان الشياطين . ٢٤ ـ شواهد الحق ، في الاستعانة بسيد الخلق . ٢٥ ـ أحسن الوسائل ، في اسماء النبي الكامل (في نحو ثلاثمئة بيت) . ٢٦ ـ سعادة الانام ، في اتباع دين الاسلام . ٢٧ ـ جواهر البحار ، في فضائل النبي المختار (اربعة أجزاء) . ٢٨ ـ ديوان النبهاني .

٢ ـ الشيخ محمد الصالح

ولد في بيت المقدس عام ١٨٦٧ وتلقى علومه على والده الشيخ سليمان الصالح ثم التحق بالمدارس التي كانت في عهده ، وفي ١٨ رمضان ١٨٩٢ قصد الديار الحجازية وادى فريضة الحج . وبعد ان اتقن الشيخ الصالح حفظ القرآن الكريم وعلوم الدين عين معلما في المدارس العثمانية بالقدس وصدر امر عال بتعيينه (اماما) لدار الحكومة العثمانية في مسقط راسه وظل (اماما) واستاذا حتى بلغ الاربعين من عمره .

وفي هذه السن راى اقبال الارساليات الاجنبية على تأسيس المدارس التبشيرية شديدا ولمس تخلف المدارس الحكومية وتعثرها في مجاراة المعاهد الاجنبية فاخذ يفكر

بحاجة مواطنيه لمعهد وطني عال يسد الفراغ الذي يشعر به كل قومي غيور على امته وما زال في تفكيره هذا حتى استجاب لنداءضميره فاقدم غير هياب على تأسيس «روضة الفيحاء» في اواخر عهد الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد ، وظلت هذه المدرسة الوطنية مجالا حيويا تنبعث منه اصوات العاملين لبلادهم .

وخلال عمله في حقل التربية والتعليم كان يتأسى احدث النظم التربوية فيأخذ بها ويطبق منها ما يراه مفيدا لتثقيف طلابه ، وما زال ذلك دأبه حتى ادخل على مناهج التعليم المألوفة في ذلك العهد الكثير من الاصلاح والتحسين لاسيما الكتب التي كانت تدرس في روضته . ومن ابرز طوابع ذلك المربي الصالح اقدامه بجرأة على تدريس النحو والتاريخ والدين بالعربية بينما كانت تدرس هذه المواد للطلاب العرب في المدارس الاميرية باللغة التركية ، وسدا لهذا الفراغ وضع بين ايدي طلابه الاجزاء التي صنفها الشيخ مصطفى الغلاييني في قواعد اللغة والاجزاء التي الفها الشيخ محيي الدين الخياط في التاريخ ، وبهذه الوسائل الصامتة بث في نفوس طلابه الاعتزاز بالامة التي تحدروا منها ، والمغالاة بالقومية العربية .

وظلت «روضة الفيحاء» ناشطة في عملها ، سائرة على نهجها القومي حتى ادت رسالتها على احسن وجه في زمن مظلم لم يكن فيه من عوامل التشجيع على نشر العلم ما يشحذ الهمم ويزيل العقبات . ومن مآثر ذلك الشيخ الواعي انه ادخل ، في العهد التركي ، الالعاب الرياضية على طلاب مدرسته وقسمهم الى فرق وزودهم ببنادق خشبية كبنادق الجنود وبآلات موسيقية كاملة ، ودرجت تلك الفرق الطلابية على الاشتراك في المناسبات القومية والحفلات الرسمية .

وقبيل نشوب الحرب الكبرى مارس طلابه الفنون الحربية والرياضية ، على ملاعب الروضة ، وكانوا بازيائهم العسكرية واسلحتهم موضع تقدير المسؤولين العثمانيين ، وفي زيارة قام بها الشيخ الصالح الى الاستانة حمل مجموعة من صور طلابه بخوذهم العسكرية واسلحتهم النارية وقابل انور باشا وزير الحربية التركية عهدذاك واهداه تلك المجموعة فابدى الوزير اهتماما بهذه الظاهرة السارة ونفح المدرسة مبلغا من المال .

كانت اعمال الشيخ الصالح بركات على الامة العربية ، وبالنشاط الذي ابداه ، وبالجهد الذي اداه ، انتشر العلم بين مواطنيه واخذ الظلام ينحسر عن عيونهم وخرجت للوجود أفواج عربية ، من صنعه ، تجاهر بالامجاد العربية ، وتتغنى بالبطولات القومية ، وتفاخر بالامة التي تحدرت منها وتتيه عجبا بالنبي العربي الكريم الذي بعثه الله هاديا للناس وتباهي بالكتاب العظيم الذي انزله الله على نبيه المصطفى الكريم .

وبعد الاحتلال البريطاني استأنف الشيخ الصالح تأسيس مدرسة وطنية باسم «روضة المعارف» فكانت بحق وحقيق (مصنعا) قوميا لتخريج الشبان الواعين من فلسطين والاردن والعراق ، فكانوا رسل حق وخير وجهاد في كل بلد عربي قصدوه واناروا سبله بمشاعلهم ونفخوا في ابنائه روح التضحية والفداء .

وفي اوائل الحرب العالمية الثانية لحق الشيخ محمد الصالح بربه فكانت وفاته خسارة للشعب العربي في فلسطين الذي خدمه هذا الرائد الماجد بالصمت والتجرد ونكران الذات . وفي الثاني من شباط ١٩٣٩ دفن في مقبرة باب الساهرة مع رمز الاطهار الابرار الذين سبقوه الى عالم الخلود .

٣ ـ الشيخ عثمان الطباع

ولد في غزة هاشم (بفلسطين) عام ١٨٨٢ واتم دراسته الابتدائية في مدارسها عهد ذاك فحفظ القرآن الكريم وجوده ودرس التوحيد والحساب والعبادات ، وكان متفوقا على لداته في دراسته الاولى ، واتجه في دراسته الدينية وفق السادة الحنفية في الجامع العمري الكبير بغزة ، وفي عام ١٩٠٠ يمم مصر لاكمال دراسته في الجامع الازهر وحضر فيه دروس أكابر علماء ذلك العصر كالشيخ محمد السملوطي والشيخ احمد الرفاعي والشيخ محمد بخيت والامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية والشيخ سليم البشري واخذ عنهم الكثير من مختلف العلوم .

وبعد أن تمكن الشيخ الطباع من علوم اللغة والدين ونال الإجازات فيها من مشيخة الازهر الشريف غادر مصر عائدا الى غزة في عام ١٩٠٢ وشرع في التدريس والقاء الخطب في مختلف جوامع غزة الى ان أسند اليه التدريس في الجامع العمري الكبير في عام ١٩٢١ ثم اسندت اليه الخطابة فيه عام ١٩٣١ .

ورأى الفقيد بنظره الثاقب ان غزة مفتقرة الى مكتبة عامة فاخذ على نفسه أن يسد هذه الثغرة ، فشمر عن ساعد الجد والاجتهاد حتى نجح في تأسيس مكتبة عامة خصها بغرفة فسيحة في الجامع العمري الكبير وزودها بنحو من ثلاثة آلاف كتاب من مخطوط ومطبوع .

نموذج من شعره : قرض الشيخ عثمان الطباع الشعر في ظروف ومناسبات ومن شعره هذان البيتان :

الا ان نور العلم للعبد منحة فان جئت بالحسنى اتيت كما تشا
وكنت بـه بـدرا منيـرا وسيدا وذلك فضل الله يؤتيه مـن يشا

نموذج من نثره : من مقدمة كتابه « اتحاف الاعزة في تاريخ غزة » :

« الحمد لله مدبر العالم بقدرته ، معمر الكون بحكمته ، مغدق الفضل على بلاده ، مفرق الخير في عباده ، جاعل البلاد مواطن ، والعباد معادن ، ميسر كل لما خلق اليه ، مسخر اسباب فضله لمن اعتمد عليه ، احمده حمد معترف بقدره ، رافعا له الوية شكره ، واصلي واسلم

على نبيه النقي ، ورسوله الصفي ، وعلى آله الاطهار واصحابه الاخيار وبعد ،

فهذا كتاب يشتمل على تاريخ غزة ، ذات الفخار والعزة، وما احتوت عليه من المزارات والآثار ، وتراجم جماعة من اعيان علمائها والاخيار ، مع التنويه بما فيها من الاسر الفخيمة ، والبيوت القديمة ، والمدرسة فيها والمتجددة فيها ، وقد اطلقت عنان اليراع في ميدان هذه الطروس ، واتيت بما لم اسبق اليه ، وحليت به جيد هذه العروس ، حبا في العلم ، وخدمة للوطن ، ونشرا للفضائل التي اندرست في هذا الزمن ، ليكون تذكرة لنا ، وتبصرة لما يأتي بعدنا ، فجاء هذا الكتاب موفيا بها ، قائما بعظيم حقها » .

من آثاره القلمية : صنف الشيخ الطباع الكثير من الكتب والرسائل حتى بلغت الاربعين وكان أبرزها : ١ ـ اتحاف الاعزة ، في تاريخ غزة . ٢ ـ خلاصة الانساب لعائلات غزة . ٣ ـ هداية الرحمن في هدم البدع وترك التنباك والدخان .

وفي ربيع الثاني سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م) توفي بمدينة غزة عن ثمانية وستين عاما .

٤ ـ محمد يونس الحسيني ١٩١٠ ـ ١٩٥٢

ولد في بيت المقدس وتلقى دروسه في «روضة المعارف» وتخرج من « دائرة المعلمين » بالقدس وعين معلما في مدرسة الرملة الاميرية فموظفا في دائرة المالية بالقدس ، وما لبث ان التحق بالجامعة الاميركية في بيروت ونال شهادة البكالوريوس في التجارة والاقتصاد وحصل على شهادة باصول المحاسبة واعمال البنوك من جامعة لندن وعلى شهادة في القانون من معهد الحقوق الفلسطيني بالقدس .

وخلال عمل المترجم له في الشؤون العامة تميز بسياسة الحياد والترفع عن الحزبية وعين مديرا فنيا للبنك الزراعي بالقدس فمديرا محليا لبنك الامة العربية فيها ، وبعد وقوع النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ قصد القاهرة وانضم الى اسرة « بنك الامة العربية » . وفي صيف عام ١٩٥٢ عاد الى القدس وقضى نحبه بنوبة حادة اصمت قلبه في اليوم الاول من شهر رمضان ١٣٧١ (١٩٥٢ م) ودفن في المقبرة اليوسفية .

من آثاره القلمية : كتب الفقيد في التاريخ والادب والاجتماع والاقتصاد ونشر مقالات قيمة في جريدة « مرآة الشرق » المقدسية لصاحبها المرحوم بولس شحاده وصنف كتبا منها :

١ ـ تحليل وعد بلفور (مترجم عن الانكليزية) (١٩٢٩). ٢ ـ التطور الاجتماعي والاقتصادي ١٩٤٦ في فلسطين العربية (١٩٤٦) . ٣ ـ الفكر الاجتماعي . ٤ ـ خواطر ولمحات . ٥ ـ المعرفة التجارية . ٦ ـ المدن الفاضلة (١٩٥١) . ٧ ـ تراث الاسلام (مترجم عن الانكليزية) .

نموذج من نثره : «لقد قسم الفارابي المجتمع الى مراتب تبين مركز الفرد بين الجماعة ، سواء أكان رئيسا ام كان تابعا . وحصر وظائف الناس في المدينة على وجه التحقيق، وجعل من وظائف الرئيس الضمنية ان يضع الخطط ويبين الاهداف والمقاصد للمدينة ويصدر الاوامر ويراقب تنفيذها، اي انه اناط به القيام بوظائف معينة ، او بعبارة اخرى جعل له صفة معينة حتمت عليه ان يقصد بتصرفاته مصلحة المجموع (١) . ومراتب الفارابي تسمى في المصطلح الاجتماعي الحديث مراتب قانونية Formolized Statuses لا يهم المجتمع شخصية الافراد الذين تخلع عليهم الصفة Role بقدر ما يهمه استمرار الحياة والادارة اليومية وسيرهما على الوجه الصحيح من اجل المصلحة العامة . ومراتب الفارابي الاجتماعية تكاد تشبه « الهرم الابتر » Truneated Pyramid شأنها في ذلك شأن جميع المجتمعات المؤلفة من طبقات او مراتب اجتماعية ، تقوم ادناها على القاعدة وتنتظم المراتب الاخرى فوقها صعدا ، الدنيا تحت العليا الى اعلى المراتب ، ومما لا شك فيه ان ادنى المراتب في تقسيم الفارابي كانت طبقة العبيد ، وان اعلاها كان الخليفة ، ودونه الملوك ، ودونهم الوزراء ، ودونهم العمال، ودونهم رؤساء الجند ، والجنود ، وجمهور الامة !

ولم يحدثنا الفارابي عما ينتظر كل مرتبة من « فرص الحياة » ويقصد بـ « فرص الحياة » التمتع بطيبات العيش ، كالحرية ، ومستوى المعيشة العالي ، والراحة والاحترام ، وكل الاشياء الاخرى التي يقدر لها المجتمع قيمة عالية ، واهل اعلى المراتب ، او المتنفذون ، هم كما يقول لاسويل (٢) : « الذين يحصلون على اكبر قسط مما يمكن الحصول عليه » ولكن (ابا نصر) بين ان اهل الصناعة الواحدة يتفاضلون بالكمية ، « كأن يكون كاتبان مثلا علم احدهما من صناعة الكتابة اكثر ، واخر احتوى من اجزائها على اشياء اقل : مثل ان هذه الصناعة تلتئم باجتماع علم شيء من اللغة وشيء من الخطابة وشيء من جودة الخط ، وشيء من الحساب ، فيكون بعضهم قد احتوى من هذه على جودة الخط مثلا ، وعلى شيء من الخطابة ، او اخر احتوى على اللغة وعلى شيء من الخطابة مثلا ، وعلى شيء من الخطابة ، او اخر احتوى على اللغة وعلى شيء من الخطابة وعلى جودة الخط ، والاخر على الاربعة كلها » ، فهؤلاء مع انهم من مرتبة واحدة يجب ان لا يتساووا في « فرص الحياة » طبعا ، بل ينال كل منهم نصيبا بمقدار كفاءاته ومؤهلاته » .

عمان — البدوي الملثم

(١) قال الفقهاء : « ان التصرف على الرعية منوط بالمصلحة ، وقد سمى علماء الاجتماع التصرف المضاف الى المرتبة او المركز صفة «Role».

(٢) Harold Lasswell «How gets, what, when, and How» P 3 — 1936

وداع ...

قالت : انك تخيفني واغلقت الباب

●

بلند الحيدري



لا تقلقي
سنمر ... لن نلتقي
وينتهي دربان في المفرق
وكل ما نسيت في هدأتي
من حلم شيق
واحرف شاخت ولم تورق
ومن رؤى
اعيدها اليك ... لا تقلقي
لا تفزعي من مزق تجف ... لا تغرقي
لعل ان مر شتاء ـ غداً ـ
ببابك المطرق في صمت ، كئيب ، شقي
تلقين ما تحرقين
تلقين ما يدفيء صمتنا حزين
تلقين في ما بقي
من احرف شاخت ولم تورق
دفءاً لهذا العالم المغلق
لقلبك المرهق .

*

ـ وانت ..؟
اما انا ... ما زال مجذافيَ في زورقي
والبحر ما زال مدى حالماً
يدعو ... وقد اسأل عن مطلق
ـ وانت ...
لم تفهمي .. سدي اذن بابي ولا تقلقي

ايونسكو والموت و«الملك المحتضر»

بقلم جورج سالم

* * *



اشار الكاتب المسرحي المعاصر اوجين ايونسكو غير مرة الى ان مشكلة الموت ، كانت تشغل ذهنه ، وتعتمل في ضميره منذ زمن بعيد ، موغل في البعد . ولا عجب في ذلك ، فان مشكلة الموت تظل دائماً بين العديد من مشكلات الانسان اقساها واعنفها ، لانها ترتبط بسائر المعاني الرئيسية التي يدور حولها تفكير الانسان كالحياة والزمان والابدية والوجود والله ... ذلك بان الانسان ، على خلاف المخلوقات كافة ، هو الكائن الوحيد الذي يعرف انه مائت لا محالة ، واما بلغ الانسان حدا من الوعي والنضج الفكري ، فان معنى الموت يجبهه ، ويقف امامه كسؤال الاسفنكس الخالد في قصة أوديب المعروفة ...

ان هذه المشكلة الانسانية التي اقلقت ايونسكو ، ولبث يفكر فيها ابدا ، قد جسدها اخيرا ، في مسرحيته « الملك المحتضر » وهي أهم مسرحية كتبها ايونسكو بعد مسرحياته الكثيرة التي نالت من الشهرة والذيوع ما لم يتح الا لقلة قليلة من المسرحيات المعاصرة ، وقد بلغ ايونسكو في هذه المسرحية ذروة فنه وشارف روعة الآثار الكلاسيكية الخالدة في شمولها وعمقها وانسانيتها .

والمسرحية هذه لا تجري حوادثها في زمان او مكان معينين ، وليست تتألف من فصول او مشاهد تندرج احداث المسرحية خلالها ، فكأن في مشكلها هذا مسرحية مستمرة ابدا تجري في كل مكان وزمان . اما اشخاص المسرحية فافراد قليلون ، هم « الملك بيرنجه الاول » ـــ وهو بطل ايونسكو المشهور الذي نراه في كثير من مسرحياته ، في « الكركدن » مثلا ، وفي « سيارُ الهواء » و « القاتل المجاني » ـــ ثم الملكة مرغريت زوجة الملك الاولى ، والملكة ماري زوجه الثانية ، وطبيب ، هو في الوقت نفسه جراح وجلاد وعالم جراثيمي وفلكي ، وجولييت الخادم والممرضة ، وحارس . ومن هذه الفئة القليلة من الاشخاص اشاد ايونسكو هذه المسرحية الكبرى .

وموضوع المسرحية يسير غاية اليسر ، فنحن في قاعة غامضة ، هي قاعة العرش المتهدمة على نحو غامض ، القوطية الطراز على نحو غامض كذلك . ليس فيها غير عرش الملك وعرشان صغيران للملكتين ويقدم لنا المؤلف اشخاص مسرحيته بسرعة ، اذ يعلن الحارس عن قدوم الملك فيجتاز هذا المسرح ويخرج . ثم يعلن عن قدوم مرغريت الملكة الاولى والخادم جولييت اللتين تمران وتخرجان ، وتظهر ماري زوجة الثانية مع الخادم جولييت ، واخيرا نتعرف شخصية الطبيب ، وبذلك نلج مباشرة -وعلى نحو سريع هذاالعالم الذي خلقه ايونسكو . ولا يلبث ان يطرح امامنا المشكلة طرحا سريعا يسيرا مباشرا ، فالملك موشك انيموت ، يعرف ذلك الطبيب ، والملكتان كلتاهما ، ولكن كيف السبيل الى انباء الملك . اما زوجه الاولى فمصرة على انبائه بالامر ، وهي على يقين من موته لا يأخذها في ذلك اي شك ، وليست تريد ان تماطل في الموضوع ، وهي تلقي اللوم كل اللوم على زوجه الثانية التي صرفته عن جد الامور صرفا ، فلم يتهيأ لمثل هذا الحادث التهيئة الكاملة المناسبة ، وانفق اوقاته في اقامة حفلات اللهو واعداد المآدب والاحتفالات .

اما الملكة الثانية فمتعلقة به تود حياته ، وتحاول جهدها ان تستبعد هذه الفكرة الاليمة وتلوم مرغريت على قساوة قلبها اذ لا تأخذها بالملك اية شفقة . وهي تجتهد في ان تثنيها عما بيتت من اخبار الملك . ولكن اذا لم يكن من كل ذلك بد فليكن اعلامه بامر موته رفيقا رقيقا . ولكن الملكة الاولى تصر على ان قد سبق السيف العزل ، فليس ثمة مجال للاخذ والرد . فلقد تهدمت المملكة وطغى البحر على اليابسة فاغرق الارضيين ، وانسته الملكة الشابة امورالدولة فاهمل البلاد وواجبه نحوها ، واغار جند البلدان المجاورة على اراضيه فسلبوها ، وهزم جنده ، وهرب الشبان ، ولم يبق في البلاد غير آلاف الشيوخ . وبينما هما في حوارهما يدخل الطبيب ، واذا هو موقن بان داء الملك عياء لا برء منه ، وان لا امل في علاجه ولا سبيل الى شفائه . والى ذلك فان ثمة علامة جديدة قد ظهرت ، فكوكبا المريخوزحل قد اصطدما ، وانفجر كوكبان وفقدت الشمس ستين بل خمسا وسبعين بالمئة من طاقتها ، وتساقط الثلج فيالقطب الشمالي من الشمس ... ولا يكتفي الطبيب ، وهو العالم الفلكي بذلك ، بل يعلن عما آلت اليه الارض من خراب ودمار في الوقت نفسه ، فالربيع الذي كان يعمر الارض مساء امس قد رحل ، وحل الشتاء محله ، ويبست الاوراق ، وها هي التربة تتنهد وتموت والارض تنشق اكثر من العادة والصاعقة تتجمد في السماء والغيوم تساقط ضفادع ، والرعد يزمجر ...

ثم يظهر الملك ، وآثار التعب والاعياء بادية عليه ، فهو متوعك الصحة ، يشعر بشيء من الضعف ، والوهن ، ويظلع في مشيته ، وتحزم الملكة مرغريت امرها على اعلام الملك بانه مشرف على الموت ، رغم معارضته الملكة الشابة ماري ، ويتلقى الملك هذا النبأ بكثير من البرودة ، فهو يعرف ذلك ، والناس جميعا يعرفون ذلك ، فكل انسان ميت ، والملك يطلب الى زوجه ان تحدثه عن ذلك متى حان حينه ، وهو يعجب منها انها تثير مثل هذا الموضوع في الصباح الباكر . ويؤيد الطبيب ما ذهبت اليه مرغريت ، فلا يزداد الملك الا اصرارا على موقفه ، فهو واثق بان سيموت ، ولكن بعد اربعين عاما او خمسين ، حين يشاء ذلك ، حين يتاح له

الوقت ، أو حين يقرر ان يموت . اما الان فهو معني بشؤون المملكة الآيلة الى الانهيار والفناء . ولكن الملكة تنبئه انه عاجز عن القيام باي تحسين في المملكة عجزه عن استعادة صحته نفسها ، وتعلن له في الوقت ذاته انه مائت بعد ساعة ونصف الساعة ، مع انتهاء المسرحية .

الا ان اللامبالاة التي استقبل بها الملك هذا النبأ اول الامر تستحيل الى تمرد ، فيصرخ : « من تجرأ على اصدار مثل هذه الاوامر دون موافقتي ؟ ان صحتي جيدة ... وسأموت حين اشاء ، فانا الملك وانا الذي يقرر . » ولكن الشيء الثابت ان الملك اصبح عاجزا عن اصدار الاوامر ، وان اوامره لم تكن لتنفذ بعد الان ، بل انه نفسه اصبح عاجزا عن اصدار الاوامر ، فأن من حوله اصبحوا عاجزين كذلك عن تنفيذها ، وها هي الملكة مرغريت تذكره بانهمائت بعد ساعة وربع ساعة ، وتنصح الملكة الثانية بألا تعمد الى تلهيته ، فقد اصبح على شفا المنحدر ، وسينفذ البرنامج بحرفيته . وليتمن الملك ما شاء ان يتمنى بان يعود الزمان القهقرى ، الى ما قبل عشرين عاما ، بل الى الاسبوع الفائت بل الى ليلة الامس ، الا ان ذلك كله باطل لا يتحقق ، فلم يعد هناك من زمن ، لان الزمان قد ذاب في يده ، وامام احساسه بالمأساة ، بمأساة الزمن الذي لم يبق قادرا على ايقافه ، تند عنه صرخات الذعر والالم : « كلا ، لا اريد ان اموت ، ارجوكم لا تدعوني اموت ، تلطفوا بي ولا تدعوني اموت ، لا اريد ذلك . » ولا يجد الطبيب في هذا كله الا ازمة طبيعية متوقعة ولن تلبث الازمة ان تمر كل ما يشعر به الملك الان حسرة اليمة لانه لم يتنبأ بموته قبل حين . ولكن كان عليه ان يفكر بذلك — على حد تعبير الملكة الاولى — منذ اول يوم له في الحياة ، وفي كل الايام ، وان يخصص دقائق كل يوم ، ليتفكر في ذلك . كان عليه ان يحمل هذه الفكرة في ذاته على نحو مستمر دائم وراء كل أفكاره . الا انه كان يؤجل التفكير في ذلك عقدا بعد عقد وجيلا بعد جيل ، وما أشبهه الان بتلميذ يتقدم للامتحان دون ان يكون قد اعد للامتحان عدته . وها هو يصرخ طالبا النجدة من شعبه ، وها هو يبكي ويستجدي الناس ان يقايضوه حياته بحياتهم . « من يريد ان يمنحني حياته ؟ من يريد ان يعطي حياته للملك ؟ ان يعطي حياته للملك الطيب ، للملك البائس ؟ » ولكن الصدى نفسه كف عن ترداد هذه الصرخات . اذ ذاك ينزع الملك الى الوهم ، فيرى في ذلك كله كابوسا وحسب ، ويرغب عن سماع أقوال الملك ومرغريت ، الا ان جسمه اصبح بادي الوهن ، ورجليه عاجزتان عن حمله ، وذراعيه لا تستطيعان الحراك . بيد انه قد اذعن آخر الامر للواقع ، وها هو الطبيب يشرح ذلك فيقول : « ان الامر يسير سيرا افضل ، فهو يئن ويبكي ، الا انه بدأ مع ذلك يعود الى رشده ، فهو يتشكى ويحتج وهذا يعني انه بدأ يذعن . » واما بلغ الملك هذه المرحلة فانه يجتهد في ان يتغلب على الموت ، وذلك بان يعمل على ان يبقي ذكره بعد وفاته ، كأنما يرى في ذلك امتدادا للحياة الانسانية . « ألا فليتذكرني الناس ، وليبكوني ، وليخلدوا ذكراي في كتب التاريخ جميعا ، وليحفظ الناس كلهم سيرتي غيبا ، فلتكن حياتي وحدها موضوع دراسة العلماء ، لتحرق سائر الكتب ، ولتحطم بقية التماثيل ، وليوضع تمثالي في جميع الوزارات والمكاتب والمديريات ، ولتحمل اسمي الطائرات والبواخر والمركبات ، ولينس الناس بقية الملوك والمحاربين والشعراء والمغنين والفلاسفة ... » لقد بلغ الملك مرحلة الهذيان وبدأ يشعر بالبرد يسري في اوصاله ، فهو يدعو الشمس لمعونته ويجأر طالبا ان يرى ، ويود لو ان الاخرين يدخلون جسمه ليكونوا ذاته ، ويلبسوا اهابه ، ولكنه لا يرى فيهم الا غرباء بعد أن كان يظنهم اقرباء له . لقد اكتشف الملك وحدته امام الموت ، فما من صديق او قريب او انسان يستطيع ان يحل محله او يشاركه عبء هذه التجربة ومرارتها ، ولكن هل يستطيع من سبقه من الناس الى الموت ان يمدوا له يد العون : « ألا ساعدوني على اجتياز القبة التي اجتزتموها ! من دفعكم الى الموت ، ومن الذي جركم اليه ؟ انتم يا من كنتم اقوياء وشجعانا ! » ان ملايين الموتى يضاعفون غمه ، وان العالم كله ينطفىء فيه . واذا كانت الحياة منفى ، كما تزعم الملكة مرغريت ، فانه ليحب هذا المنفى ، وليس يرغب في أن يعود الى وطنه . وهو ، رغبة منه في كسب الوقت ، يعمد الى محاورة خادمه جولييت ، فاذا هو يكتشف أن حياتها ، على ما هي عليه من تعب وارهاق ، مليئة بالجمال ، وان لاتفه شيء حين يكون الانسان على قيد الحياة جماله وغناه ومعناه . يقول الملك للخادم : « هل يضجرك العمل ! ما اجمل ان يضجر الانسان وما اجمل الا يضجر ، وان يغضب والا يغضب . وان يكون راضيا وان يكون ساخطا . الناس يتحركون وانت تتكلمين وهم يكلمونك ، وتلمسينهم ويلمسونك ، ان هذه لحفلة بهيجة وعيد دائم ! »

ونبلغ في نهاية المطاف الحركة الاخيرة في هذا العمل المسرحي . فقد بدأ الملك يتخلى عن رغائبه . وفي هذا ايذان بقبوله فكرة الموت وإذعان لها . وما الجهود التي تعود الملكة ماري لبذلها في سبيل انقاذه الا جهود ضائعة. فليس للحب ان يوقف موت الملك الوشيك ، ولا تلبث الملكة ماري ان تختفي ، ويختفي اثرها الحارس ثم جولييت وينسحب الطبيب ، ويبقى الملك وحده ترقبه الملكة الاولى مرغريت ، واغلب الظن ان هذا رمز الى ان الانسان يموت وحده بعيدا عن كل عون : فما من احد يستطيع ان يدفع عن الانسان قدره هذا . وتنقطع صلة الملك بالعالم الخارجي ، فها هوذا قد اصيب بالصمم ، فلم يعد يسمع شيئا ، وكف بصره فلم يعد يرى شيئا . وها هي ذي الملكة مرغريت في الختام تجرده من اثقال وهمية ، هي الاثقال التي حملها طوال حياته ، فتنزع عنه السيور التي تقيده ، والايدي الممسكة به ، والاعمال التي ينوء بها ظهره ، كما تنزع عنه

جواهره وحذاءه وأدواته وعتاده الحربي كي تخلص الى القول له : « وهكذا فقد خلصتك من هذه الشقاوات الصغيرة والقذارات التافهة ، وما عليك الان بعد ان تحررت منها الا ان تسير . » اما مسيرته هذه بعد ان تجرد من المادة فالى اعماق ذاته ، الى اعمق اعماقها ، في صميم الذكريات الملونة ، وتأمره من بعد ان يعتلي عرشه وان يستقر عليه ، فيصعد الملك مغمض العينين ، غائبا عن الوعي ، على الكرسي ، رمز الموت والحرية ، حيث ينبغي ان يتخذ هناك مقاسه الحقيقي . واذ ذاك تختفي الملكة وبعدها يختفي كل ما على المسرح من نوافذ وأبواب وجدران واخيرا يختفي الملك وعرشه ، ولا يبقى على المسرح الا ضياء رمادي .

لا شك في ان ايونسكو قد اراد في مسرحيته ان يعرض بعض الافكار العميقة التي ترتبط بالموت وبمشكلته ، مجسدا هذه الافكار والتأملات في الشخصيات التي رسمها وبنى منها مسرحيته وادار حولها العمل المسرحي .

فشخصية الطبيب العالم التي تطالعنا في هذه المسرحية تمثل صورة دقيقة لموقف العلم من الموت . وقد عبر الطبيب عن هذا الموقف في تضاعيف المسرحية . فالموت بالنسبة الى العلم حادث طبيعي خاضع لقوانين الحياة ذاتها ، وهذا ما يفسر موقف الطبيب الحيادي طوال المسرحية ، اذ ان هناك حتمية شاملة وما كان لانسان كائنا من كان ان يفلت منها . يقول الطبيب مخاطبا الملك : « لست تستطيع ان تفعل شيئا في هذا الصدد ، يا صاحب الجلالة ، ولسنا نستطيع نحن ايضا ان نفعل شيئا ، فما نحن الا ممثلو الطب ، والطب لا يفعل المعجزات . » ولهذا فقد كان قصارى الطبيب ان يفسر هذه الظواهر التي تبدو على الملك ، وان يربط النتائج بالاسباب وهو يتتبع مراحل موت الملك تتبعه لظواهر طبيعية — ولهذا السبب ايضا جعله ايونسكو عالما فلكيا — فهو يسمي كل مرحلة باسمها ويتوقع المرحلة التالية وميقاتها . وليس الملك وموته بالنسبة الى الطبيب سوى حادثة عادية مألوفة . يقول الطبيب بهذا المعنى : « سيصبح الملك صفحة في كتاب مؤلف من عشرة آلاف صفحة ، وسيوضع هذا الكتاب في مكتبة تشتمل على مليون كتاب ، وهذه المكتبة واحدة بين مليون مكتبة ! »

اما الملكة الثانية ماري ، فعلى نقيض الطبيب . أن الملك بالنسبة اليها هو الانسان الوحيد ، والعلاقة التي تربطها به هي علاقة الحب وحدها . ولكن هل يستطيع الحب ، مهما بلغ من القوة ان يتغلب على الموت ؟ تقول للملك : « ان الحب احمق ، فان كان حبك احمق ، وكنت تحب دون تفكير ، وتحب على نحو مطلق فان الموت يبتعد ، وان كنت تحبني ، وتحب كل شيء فان الخوف يختفي . ان الحب يحملك فتترك نفسك ، وان الخوف ليتخلى عنك . » ولكن في هذا الموقف تبدو مأساة هذه الملكة الشابة ، فصراعها مع قدرها المثل بموت الملك صراع مخفق بائس ، ليس له من نهاية سوى الموت المحتم . تقول عنها الملكة مرغريت : « هي تظن بان ما تدعوه الحب يستطيع ان يتغلب على المحال . » وهي لذلك تسعى لان تستبقي الملك على قيد الحياة ما استطاعت . وهي ترثي مر الرثاء للملك وتندب حياته ندبا أليما : « لم تكن الحياة بالنسبة اليه الا نزهة قصيرة في ممر مزهر ، ووعدا لم يتحقق ، وابتسامة اغلقت على ذاتها . » وها هو الموت الذي دهم الملك يحطم العلاقة التي كانت تربطها به ، ويقضي على حبها الذي لم يعد له معنى حين فقد تجاوبه . « لقد نسيني الملك وتركني ولست اعد شيئا اذا نسيني . لست استطيع ان احيا ان لم اكن في صميم قلبه المستهام . » ولهذا كله كانت الملكة الشابة ماري تشد من عزيمة الملك وتحمله على ان يتغلب على الموت وتجتهد لابعاد هذه الفكرة عنه ، ولكن جهودها كلها لا جدوى منها لان الموت اقوى من الحب نفسه .

واذا كانت الملكة الثانية تمثل الحب والعاطفة فان الملكة الاولى مرغريت تمثل الحكمة والعقل ، وكان الملك بيرنجه عرضة للتمزق بين هذين الصوتين . اما الملكة هذه فقد اخضعت عاطفتها لعقلها ، فهي التي تنبىء الملك بموته ، وهي التي تهيؤه له ، وهي التي تسكت صوت الحب المنبعث من الملكة الثانية ، وهي التي تلوم الملك انه لم يأخذ للامر اهبته ، ولم يفكر بالموت تفكيرا جديا طوال حياته ، ولم يخصه بقسم من وقته كل يوم ، لقد وقفت من الحادثة كلها الموقف الحازم الذي يمليه التعقل والحكمة ، وقد حملها الى هذا الموقف اعتقادها ان الموت امر محتم لا مفر منه ، وان كل انسان فان ، وان الحياة ليست سوى منفى .

ونصل في نهاية المطاف الى الملك بيرنجه وهو الشخصية الاولى والاساسية في المسرحية ، وهو البطل الذي اراناه اياه المؤلف يخوض غمرة الموت ويفصح عما يعتلج في نفسه من مشاعر واحاسيس وافكار وتأملات . والحق ان بيرنجه ليس ألا الانسان في كل زمان ومكان . ولكن ما السبب الذي حدا بالمؤلف فجعله ملكا ؟ يجيبنا ايونسكو عن ذلك بقوله : « لان الانسان ملك ، وهو ملك العالم ، ان كلا منا ههنا ، كأنه في قلب العالم ، وكلما مات انسان فانه يشعر ان الكون كله يتهدم ويختفي باختفائه . ان بيرنجه هو رمز للانسان ، العظيم بقوته وأبداعه ، بعلمه وفلسفته وادبه ، بتاريخه الطويل . وينسب ايونسكو الى بيرنجه كل الاختراعات والانتصارات التي حققها الانسان . فهو الذي سرق النار من الالهة ، وصنع البارود والحديد والفولاذ ، وهو الذي اخترع المنطاد والطيارة والدولاب والقطار والسيارة والمحراث والعربات والحاصدات ، وهو نفسه الذي اخمد البراكين وشيد روما ونيويورك وموسكو وجنيف واسس باريس ، وقام بالثورات والانقلابات ، وجاء بالديانات وحركات الاصلاح ، وهو نفسه الذي كتب الالياذة والاوذيسة ودون التاريخ ، والف المسرحيات تحت أسم شكسبير .

وهذا الانسان العظيم هو في الوقت ذاته انسان بسيط ،

خبايا العالم

اديب صعب

عيناك والحان الغزل
ام شلالان من العسل
وحقول الضوء تضمهما
وتلمهما
خصلا تتماوج في خصل ...

عيناك شموع منسيه
في هداة كاتدرائيه
من جدلها في عمق الليل وضوأها
باللهب الازرق والاخضر
ولمن تنذر
ولمن خبأها من خبأها ؟

عيناك وها انذا امضي
في الومض الراعش في الغمض
واغل ، اغل ، اهيم ، اضيع
احداقهما واضيع ...
وتحاوطني الاغوار وتومىء لي جزر وينابيع
في غورهما اسري كاللمح واكتشف
وابوح بما اهوى ، واسر واعترف ...

عيناك شواطىء ، والامواج تذريني ،
وانا البحار الشارد في الانواء الهوج ، فآويني
عيناك هما ، عيناك هما ،
اغوى بهما ، وارى بهما ،
واوسع دربي عبرهما ...
بهما ابصر كنه العالم ، ادرك سر العالم ، احكي ،
بهما اتحقق ان العالم لي وخبايا العالم ملكي ...
عيناك وخلفهما الدنيا –
بهما اتغلغل في المجهول ولا اعيا ،
بهما احيا ...

فهو جد الخادم جوليت التي لا تفقه غير شؤون النظافة والعمل المنزلي . وهذا الانسان نفسه في عظمته ، وبساطته يقف امام الموت خائفا فزعا . صحيح أن الملك بيرنجه قد جابه الموت في المعارك غير مرة ، ولكن للموت ههنا معنى اخر . فايونسكو يلح الحاحا شديدا على تمسك الانسان بالحياة . وحين يموت الانسان فان الاف العوالم تنطفىء فيه ، واذا كان الانسان يعلم علم اليقين انه مائت ، فان هذا العلم لا يتخذ شكله المأسوي الا حين يدخل المرء في صميم هذه التجربة . تقول الملكة مرغريت : « يظن نفسه انه اول انسان يموت . » فتجيبها ماري بقولها : « كل انسان هو اول انسان يموت . » ولقد اتاحت له هذه التجربة ان يكتشف مأساة الزمان الذي لا يستطيع له الانسان ايقافا ، ولا يمكنه ان يؤثر فيه فيستعيد سنة او شهرا او دقيقة واحدة منه ، كما اتاحت له ان يكتشف وحدة الانسان امام الموت ، تلك الوحدة الرهيبة القاسية ، فما من انسان يستطيع ان يمد له يد العون ، وما من انسان يستطيع ان يموت عنه . حتى الحب نفسه يبدو عاجزا امام وجه الموت اما رغبة الملك في ان يستمر ذكره بعد موته بان يذكره الناس ، وتعلق صوره وتدرس سيرته ، فليس الا نوعا من الرغبة في البقاء بعد الموت او هو نوع من اطالة امد الحياة ولكن هذا ايضا لا يجدي الانسان ، فلن يكون بعد كل هذا الا صفحة في كتاب يضم الاف الصفحات في مكتبة تشتمل على ملايين الكتب بين ملايين المكتبات .

ولنا ان نتساءل اخيرا رغم اعتقادنا بقسوة مأساة الموت ، ألا يتغير ايقاع هذه المأساة لو كان خلف هذا العالم القاحل الذي خلقه ايونسكو وجه اله يحب الانسان ؟!

حلب **جورج سالم**

الاشباح

●

طلعت بأثواب من الظلم ... في جنح ليل جاش بالقتم
وجرت مع الاهواء شائلة ... في حلبة عصفت بمضطرم
راياتها ضربت محلقة ... في شاسع بقوادم الرخم
وتقاطرت عجلى جحافلها ... ترمي بمصطخب وملتطم
لجج من الظلماء ما فتئت ... تنداح في سهل وفي أكم
عصفت ذلاذلها مجلجلة ... في حالك كالعارض العرم
وجرت بمنهل غمائمها ... وقتامها ينهل كالديم
وبكل شعب راية نشرت ... للصمت لم تنهض على قدم

* * *

رفع الدجى من حالك طنبا ... مستغلق الاسرار كالرجم
طالت سرادقه محلقة ... في صفحة الجوزاء كالعلم
وسمت رفارفه ومن عجب ... لم تبن بالصفاح والدعم
اوتادها في الارض من قتم ... وسجوفها في الافق من أيم
درجت بها الاشباح راتعة ... في لج ليل فاض بالنقم
وجرت كما شاء الهوى شططا ... في مهيع بالخطب مزدحم
وانضر دون شعابه نشرت ... أشراكه للقنص من امم
والرعب كشر عن نواجذه ... لوقيعة تكشير منتقم

* * *

طمس الدجى ما شع من قبس ... لحقائق سطعت من القدم
واحالها جدباء حالكة ... كنوازع الاوهام والتهم
وعفت يد الظلماء ما سطرت ... اقلام اعلام من الحكم
وتساوت الاضداد وائتلفت ... اشكالها في حالك الظلم
الليل يجمع في مطارفه ... ما بين منفصم ومنسجم
والحسن مثل القبح يستره ... ذيل الدجى ويحور للعدم
تجد الفوارق وهي ظاهرة ... عميت عن الابصار من وصم
ليس القياس بمانع ذللا ... في ظلمة من عثرة القدم

* * *

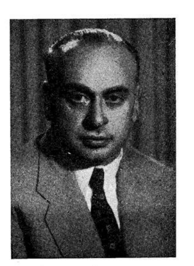
الارض للاشباح ما عصفت ... لجج الدجى بغوارب الفسم
ضربت جحافلها بمشتبه ... من حالك كنوازع التهم
وجرت جحافلها ومن عجب ... في جريها اهدى من النسم
وبكل ميدان قوافلها ... حشدت بالوان من السقم
ما كان يدعا ان ترى شططا ... والامر للاشباح والرخم
تسري بغاث الطير سارحة ... في ليلها وتعيث كالبهم
وترى كرام الاسد قابعة ... عند الدجى في الغيل من شمم

* * *

عصف الضحى بغوارب سطعت ... دون الربى وشواهق القمم
فتلاشت الاشباح غاربة ... خدر الضحى كالميت في الرجم
طويت عن الدنيا بلا اثر ... في غمرة النسيان والعدم

دمشق

عدنان مردم بك



الدكتور محمد حاج حسين

الموت في شعر عبيد بن الابرص

بقلم محمد حاج حسين

مأساة الانسان ... الموت .

سأل كونفوشيوس بعض تلامذته .. ما الموت ؟ واجابهم : هل عرفنا الحياة حتى نعرف الموت ؟. وهنا تتركز مأساة الانسان الحقيقية عندما يعدو الموت على عزيز عليه، فيستل منه الروح ، فالالم الذي يثوي في اعماقه لا حد له . ويدرك الانسان الضعيف انه ازاء قوة هائلة لا قبل له بمقاومتها هدمت حياته ، ومزقت روحه وقادته الى مأساة جاهمة يستحيل عليه ان يتخلص منها .

ومن مأساة الانسان ازاء الموت تم التكوين الادبي في العالم فالملاحم السامية القديمة هي التي رسمت الخطوط العريضة لهذا التكوين الادبي التي تتركز حول الموت ، ولا تزال حتى الان الينبوع الذي يغرف منه الادب في الدنيا كلها ، فالاديب الموهوب يستمد الهامه من هذه المأساة الدامية الحفيلة بالغصات والاهات ، والتي لا تنتهي الامها. منذ أشهر افضى سارتر بحديث الى مجلة انكليزية قال فيه : ان ازمة الكاتب الحديث هو الجوع ، فيجب ان يكافحه كيلا يكون في خدمة طبقة معينة تمتص دماء الاخرين .. واثار هذا الحديث الكثير من الجدل والنقاش وقال كاتب افرنسي ردا عليه .. ان ازمة الكاتب الحقيقية هو الموت ، فهو مأساة الانسان في كل زمان ومكان .

لقد صدق هذا الكاتب ونفذ الى لب الحقيقة ، فمأساة الموت لا تزال المصدر الاساسي لكل فن جليل . واقدم شعر في العالم هو الذي يرقى الى القرن الثامن عشر ق.م. في عهد حمورابي ، فقد نظمت في هذه الفترة بعض اجزاء ملحمة جيلجميش التي رسمت الخطوط العريضة للتكوين الادبي في العالم .. فجيلجميش .. بعد ان اقل انتصارات ماجدة على عملاق الارز ، والثور الالهي الذي عاث فسادا في المزارع يحاول باستماتة ان يكافح عدوه الالد .. الموت .. وفي سبيل هذه الامنية اجتاز الاهوال حتى وصل الى الجزيرة النائية التي يسكنها احد اجداده الذي عصمته الالهة عن الموت ابان الطوفان ، وكتب له البقاء السرمدي لصلاحه .. وبعد لأي يعطيه شراب الخلود ويعود مزهوا يتوثب فرحا حتى اذا ما راى غديرا لبى نداء الماء ، وتجرد من ثيابه وراح يسبح في سعادة طلقة ، وفجأة راى افعى عجوزا تلعق الشراب ، فترتد شابة تفور بالحياة ورنحة الالم .. وادرك ان الموت حتم على البشر اجمعين .

وكذلك تصف ملاحم راس شمرا هذا الصراع العنيف بين الموت والحياة .. فالملك كريت .. رغم انه ابن الاله الاكبر آل برز له الموت ليستل روحه وذلك بعد ان عاث ظلما في الرعية .. وبذل مع اسرته الجهود الجبارة ليتفاداه .. بيد ان الموت لا بد ان يسحقه .. وهكذا تناثر امل هذا الملك التاعس ابادید .. فالموت لا يرحم احدا .

ان صراع الانسان مع المأساة .. لا حد له . والحياة في طبيعتها لا تقدم لنا سوى كأس مترع بالمرارة تطفو عليه بعض قطرات من عسل . والاديب العبقري يستمد الهامه من مأساة الموت والحياة ، وكلما تعمقها سمق فنه، والفنان يتميز باحساسه الدقيق الذي ينفذ الى اغوار الاشياء .. ليرى المأساة بالمرصاد ، فلا يجد سوى التعبير عنها تنفيسا عن هذا الرعب الكامن في اعماقه .

لقد ساورتني هذه الخواطر ، وانا اقرا في ديوان عبيد بن الابرص ، فقد أستطاع هذا الشاعر الجاهلي الفحل ان ينفذ الى لب المأساة ، فوقف امامها حسيرا مبلبلا تضويه لوعة قاتلة ، فقد تعمقها ، واشتد خوفه منها ، ولم يجد سوى الشعر الحي الجميل ليترجم عنها ، ويعبر عن حقيقتها الاليمة ، فليس الانسان سوى كائن بسيط تسحقه مأساة الحياة والموت .. حياته فريسة لهذه الالام المضيفة ، ثم يزهقه الموت ليقضي على كل شيء . والح عبيد على هذه الفكرة الحاحا شديدا ، وجعلها المحور الذي يدور عليه شعره مما يجعلنا نؤكد انه هتف بها عن وعي وادراك وتصميم .

وقف شاعرنا امام الحياة ، فادرك انها عبث في عبث ما دام الموت يبتلع كل شيء ، فالنعمة لا بد ان تذوب ،والمال لا بد ان يسلب ما دام الموت نهاية المأساة . يقول في نفحة حزينة نفذت الى جوهر الحقيقة :

فكـل ذي نعمـة مخلوسهـا　　وكـل ذي امـل مكـذوب
وكـل ذي ابـل موروثهـا　　وكـل ذي سلـب مسلوب
وكـل ذي غيبـة يـئـوب　　وغائـب المـوت لا يئـوب

وهكذا اكتنه مأساة الانسان . وليست الحياة سوى عذاب مرير متصل ، فهي خداعة غرارة . يقول بلهجة ثوى فيها الحزن :

والمرء مـا عاش في تكذيـب　　طـول الحيـاة لـه تعذيـب

وهل يستطيع ان يذهل عن الموت .. وفي كل يوم دليل جديد عليه ؟ وها هم أصحابه يتساقطون امام الموت فرائس هينة ، قد اقفرت منهم الديار ، وغابوا في حفرة بـاردة يذكرونه بالمأساة الدميعة التي لا ترحم :

تذكرت اهل الخير والباع والندى　　واهل عتاق الجرد والبر والطيب
تذكرتهم مـا ان تجف مدامعي　　كان جدولا يسقي مزارع مخروب

لقد فاضت نفسه بالاسى عند هذه الذكرى .. وهـل يملك ألا دموعه يسفحها بغزارة .. ولكن هل تجـدي الدموع امام الموت ؟ والانسان سادر في غلوائه ينشد الحياة المديدة ، ولا يدرك ان في طولها عذابا لا ينتهي . يقول معبرا عن هذه الحقيقة في نفحة تفيض بالتشاؤم :

ترى المرء يصبو للحياة وطولهـا　　وفي طول عيش المرء ابرح تعذيب

وهل من الممكن ان يتناسى الانسان مأساته ؟ ان الخمر قد تذهل الانسان عن واقعه الحزين فينة من الزمن ، ولكن لا بد للمخمور من الصحو ، وعندها يدرك ان الكفن لـه بالمرصاد ، والقبر يفغر فاه ليتلقفه :

ان اشرب الخمر او ارزا لها ثمنا　　فلا محالة يوما انني صاحي
ولا محالة مـن قبر بمحنيـة　　وكفن كسراة الثـور وضـاح

وما جدوى الانسان بعد الموت ؟ حتى الذكرى الخيرة يضن الناس بها عليه ، وادرك عبيد بن الابرص ان الانسان متى اصبح رمة بالية انتهى كل شيء .. حتى لو انفق جميع ماله في الخير لما حمد له الناس شيئا من هذا :

اني وجدك لـو اصلحت ما بيدي　　لم يحمد الناس بعد الموت اصلاحي
اشري التلاد بحمد الجار ابذلـه حتى اصير رميمـا تحت الـواح

والمأساة يحملها الغد ، وقد يفتر الانسا ن، فيذهل عنها .. بيد ان الحقيقة لا بد ان تتضح ذات يوم له ، فيدرك ان المنية ضربة لازب تنهي كل شيء . يقول في مرارة :

ان الحوادث قـد يجيء بها الغد　　والصبـح والامسـاء منها الموعد
والناس يلحـون الامير اذا غوى　　خطب الصـواب ولا يلام المرشد
والمرء مـن ريب المنـون بغـرة　　وعـدا العداء ولا تـودع مهـد

لقد كان شاعرنا يحس بالمأساة احساسا عميقاً ، فهـو يعلم ان كر اليوم على الانسان يدنيه من النهاية الفاجعة ، فالموت وراء الناس يحدد لهم حتى اذا ما اشرفوا على نهاية الفاجعة سطا عليهم :

يا عمرو ما راح من قوم ولا ابتكروا　　الا وللموت في آثارهم حـادي
يا عمرو ما طلعت شمس ولا غربت　　الا تقـرب آجـال لميعـاد
هل نحن الا كارواح تمر بهـا　　تحت التراب واجساد كاجساد

والحقيقة الكبرى هي :

ان امامك يـوما انـت مدركـه　　لا حاضر مفلت منه ولا بـادي

والانسان يعلل نفسه بالمنى الكاذبة .. انه يهوى الخلود ويجد فيه تسرية وتعزية عن المأساة .. والحقيقة ان الخلود لا غناء فيه ، فهو عدم لانه فناء في جوهره ، ولن يبقى الا وجه ربك :

ما تبتغي من بعد هـذا عيشـة　　الا الخلود ولن ينـال خلودا
وليفنين هـذا او ذاك كلاهمـا　　الا الالـه ووجهـه المعبـودا

ولهذا ازدرى عبيد بن الابرص الحياة كما ازدرى الموت، فقد ادرك المأساة التي تخفق على الكون ، ولا ينجو منهـا احدا ، فسيان عنده الموت والحياة ما دامت النهاية معروفة:

واللـه ان مـت مـا ضرني　　وان عشت ما عشت في واحده
فابلـغ بنـي واعمامهـم　　بـان المنايا هـي الـوارده
لهـا مدة فنفـوس العبـاد　　اليهـا وان كرهـت قاصده
فـلا تجزعوا الحمام دنـا　　فللموت ما تلـد الوالـده
فواللـه ان عشـت ما سرني　　وان مـت ما كانت العائده

لقد انتهى الى هذه النتيجة الاسية بعد ان ادرك بثاقب فكره ، ورهافة حسه مأساة الانسان ، ووضحت له النهاية التي لا بد منها .. فلم التشبث بالحياة ؟. ولم الخـوف من الموت ؟ يقول ناعيا نفسه :

اقفـر مـن اهلـه عبيـد　　فليـس يبـدي ولا يعيـد
عنت لـه منيـة نكـود　　وحـان منهـا لـه ورود

وابت المأساة الا ان تعد له ميتة في نهاية البشاعة ، فقد ام الحيرة منتجعا المنذر بن ماء السماء ، فكانـت منيته الوجيعة التي استقبلها ساخرا منها لانه واثق من نتيجة الحياة . قالت الرواة : « وكان للمنذر بن السماء يومان معروفان : يوم بؤس ، ويوم نعمة ، فكان اذا خرج في يـوم نعمة يصل اول من يلقاه ويحبوه ويحسن اليه . فبينا هو يسير في يوم بؤسه اذ اشرف عليه عبيد ، فقال لرجل ممن كان معه : من هذا الشقي ؟ فقال له : هذا عبيد بن الابرص فاتي به . فقال له الرجل : ابيت اللعن .. اتركه .. فـان عنده من حسن القريض افضل مما تدرك في قتله مع انه من رؤساء قومه ، واهل النجدة والشأن فيهم ، فاسمع منه ، وادعه الى مدحك ، فان سمعت ما يعجبك كنت قد عفت له المنة ، فان مدحته الصنيعة ، فان لم يعجبك قوله كان هينا عليك قتله . فاذا نزلنا فادع به . قال : فنـزل المنذر ، فطعم وشرب وبينه وبين الناس حجاب يراهـم منه ، ولا يرونه ، فدعا بعبيد من وراء الستر ، فقال له رديفة : ما ترى يا اخا اسد ؟ قال : ارى الحوايا عليهـا المنايا . قال : فعليك بالخروج له ليقربك ذلك من الخلاص. قال : ثكلتك الثواكل .. اني لا أعطي باليد : ولا احضر البعيد .. والموت احب الي . قال له الملك : افقلت شيئا ؟ قال : حال الجريض دون القريض . ثم قال المنذر : قـل في مديحا يسير في العرب. فقال: اما والصبار في ما عجل فلا. فقال : نطلقك ونحسن اليك . قال : اما وانا اسير فـي يديك فلا . قال : نردك الى اهلك ونلتزم رفدك . قـال : اما على شرط المدح فلا » ..

وهكذا رفض عبيد بن الابرص ان يطلق الملك سراحه على شرط ان يمدحه .. لانه كان يسخر من الحياة ، ويعلم

من اشعار الفارس الجديد

شذا النارنج في دربي ، كاحلام الشحارير
تضج النفحة البلهاء في حلقي ،
وتجرفني خلال الليل ، عبر مساكب الرؤيا ، تصاويري
عذاب الجرح غلغل في شراييني
وما ذبلت حواكيري !
دبيب الشوق في رئتي ، بقايا منك تشقيني ،
تدمدم ليلتي البيضاء : لا عذراء ترويني ..
ـ ولا شباكها المدروز في حلمي ـ
فعبر ستائر الشمس ..
اماني التي احترقت على شفق غريب اللون كالورس
تفض بكارة الفلس ..
تخمشني رياح الليل .. تذري حقدها المجنون
في عيني ، وتشويني ..
وعند منابت الرؤيا ، بحار الشوق تطويني
مرافؤهـا صدى امراة مـن التاريخ والعدم
تبعثـر روعة الحلم
يجذف شوقها المزور عبر مفاوز القدم

●

رياح الحب يا وطني ، تهب ، تهب يا وطنـي
ومـاء الملح اشربه زلالا من قواريري
والعمـن بذرة الزمن
بيادرنا ، بيادر شوقنا احترقت ، ولا نار بذا الحزن ،
نلملم تركـة الكفن
ويا نافورة « القصاع » يا عمري الذي اقوى
ومـا جفت نوافيري ..
جراح الفارس المنسي ، قلبي شاعر اعمى
ولكني بـلا ماوى
اجرجر حرقـة البصر
تمر حبيبتي الشقراء ، المسها .. فتنكرني

ـ خسئت مطارف القمر ـ
أيـا تجويفة الزمـن ..
اليك مشاتـل الاشعار ، أبهـاء الاساطير
أعمرها حكايات ، شبابيكا مـن النور
ادحرجها منـى ولهاثة الرؤيـا امام منافذ الدور
فديت مطارح الاشواق فـي عب الشحارير ...

●

عيون الليل نافذة ، تطـل على ربـا الحبـق
ويـا الحان « نيرون » لهيـب الشعر في سفني
شذا النارنج في دربي ، واشرب علقم الضجر
واجتر الهوى المكبوت فـي قاع بلا صدف ...
لتعلك حلمي امراة
تكشف صدرها المفضوح عن مرج من الترف
ويـا احلام تيمورلنك في تورا الا احترقي
فاشعاري ترش مساءك المذبوح بالعبق ..

●

دمشق مدينتي الحيرى ، ايا ماوى المساكين
تذوبني رؤى النارنج عبر ستائر الغرف ..
صبايا الدور تكويني ..
فيغمر خدرك الضجر ..
وتغسلني جراح الحلم في دنياك يا مطر
أيـا صنـو البساتين
فاعبر شارع القصاع في وجهي صدى باك
لعل حبيبتي الشقرا ، تعود ، وقرب شباكي
ترف ترف آلاف العصافير

دمشق — اسماعيل عامود

ان الموت لا بد ان يعدو عليه عاجلا او اجلا .. فلم هـذا التسويف الذي يكبله في وعد لا يريد ان يفي به .. فليكـن الموت ما دام لا بد ان يرده .. واختار ميتة شعرية عندما ساله المنذر : يا عبيد اي قتلة احب اليك ان اقتلك ؟ قال : ايها الملك روني من الخمر ، وافصدني ، وشأنك وشأني . فسقاه الخمر ، ثم قطع له الاكحل ، فلم يزل الدم يسيل حتى نفد الدم ، وسالت الخمر ، فمات ..

هل كان عبيد بن الابرص يحس احساسا غامضا بهذه النهاية الفاجعة حتى الح على ذكر الموت الحاحا شديدا .. كأنه يتهيأ لهذه النهاية الظالمة التي اوقعها به ملك تجانف عنه العدل ، وران عليه الاستبداد ؟

الجرجانية — محمد حاج حسين

الطائف

مدينة الزهر والشعر

انور العطار

دمشق

حي في « الطائف » الربيع الندائم   ان بدا برعم تلته براعم
هو في الروض زينة تخلب اللب   وما الروض غير روح حالم
وهو في القلب فرحة تغمر القلب   كأن الربيع خل موائم
يستعير الجمال منه سناه   وتلبي الرقى وتسعى التمائم
وترود الظباء دنياه جذلى   فيحلي اجيادها والمعاصم
يا امير الربا ويا شاعر الدو   ح ويا مدمع الهيام الساجم
انت في الفكر جدول يتندى   انت سحر ينسيك سحر المباسم
نسم الوجد في الحمى نسمات   فشممنا منها عبير النواسم
ما لبان اللوى مدلا على الاث   ل أبيا على ظباء الصرائم
ألأن الهوى سقاه فأصبا   ه ولا يعرف الهداية هائم

* * *

حي في « الطائف » الربيع الموشى   بأفانين من خيال ناعم
بضروب من الشحارير هيمى   حانيات على غصون هوائم
حي في « الطائف » الاناقة واللط   ف وطف بالحمى الاليف الملائم
بلد الزهر جل من ابدع الزه   ر واحياه في جفون الكمائم
تتراءى عيون نرجسه الغض صحاحا   وهي المراض السواهم
وتلوح الخدود في نضرة الور   د اذا عل من دموع الغمائم
وثمار النعيم رف سناها   كاللآلي فرائدا وتوائم
يا لكرم يزينه عنب الخا   د وفي الكرم تستسر المكارم
العناقيد فيه صرعى نشاوى   ريمتها من الفروع روائم
يا لها روضة تتيه على الرو   ض وتفتر عن ثغور بواسم
يا لرمانها الروي على الده   ر وتفاحها الشهي المطاعم
يا لسحر النخيل في القد ممشو   قا وفي الفرع وهو جعد فاحم
تترامى ظلاله في مدى الاف   ق بما يشبه البحار الخضارم
ما الصبايا يرفلن في الوشي احلى   منه وشيا ولا ادل معالم
شمت فيه الربيع ريا   ن فيا شعر حي ما انت شائم
ولمست الحسن الذي يسكر الرو   ح وللحسن حين يجلى مناعم
ولكم اسعد الهوى والاماني   ولكم انطق الرؤى والطلاسم
فاسأل الرسم من بكاه محيلا   حين أمسى نهب العوادي الفواشم

* * *

حي في « الطائف » البيان المصفى   كالرحيق المجود المتقادم
بلد الشعر عز من علم الشع   ر وما الشعر غير دمع المراحم
زفرات افضى بها القلب اسوا   ن فكانت أرق شدو الحمائم
علمتنا ان القصيد اذا رق له   في النفوس فعل البلاسم
يا له من منادم ملك النف   س فنعم السمير نعم المنادم
وتغنت بما يقول العوالي   وتباهت بما يصوغ الصوارم
يا لسان الهوى اذا عي بالقو   ل ويا عرفه الذكي الفاغم
انت صورته وبينت معنا   ه ونوهت بالحبيب الظالم
ان تشكي جراحه داميات   فبألفاظك الرقاق المراهم
او تناءى الربيع كنت يد الخص   ب فيا موسما شأوت المواسم
انت حادي العصور وهي توالى   انت رمز العلا وسر العزائم

* * *

يا مصيف الهوى عليك سلام   من فؤاد على ربوعك حائم
انا شعر على جبالك منثو   ر وناي على شعابك ناغم
فاقرأ الشوق في عيون القوافي   ان للشوق في العيون علائم

نظرت الى الساعة قلقا . كان عقرب الدقائق قد تحرك بدم بارد مشيرا الى السادسة مساء . وتصورت سعاد واقفة امام ..... تنتظرني ، وقد ارتمت نظرتها على سيل المارة تحاول عبثا ان تلتقطني بينهم . القيت نظرة على سائق التاكسي الجالس مطمئنا الى يساري ، وخطر لي ان استحثه على الاسراع :

ـ ممكن تعجل قليلا ؟

التفت الي نصف التفاتة وقال بلهجة مستاءة : « الا ترى ان الشارع شديد الازدحام ؟ » وثبت نظرتي الى شارع الحجاز امامي ، ووجدت ، مرتبكا من قلة تبصري ، انه مزدحم فعلا بأرتال طويلة من السيارات الصغيرة المتنوعة الالوان والحجوم . وفوق ذلك، كان بعض المارة يخترقون صفوف السيارات بطيئة السير غير مبالين بنظرات السائقين القاسية . كانت امسية جمعة «شامية» وغاصة بالحركة .

بعد خمس دقائق طويلة انعطفنا الى شارع البرلمان . حينما تأملت الشارع الطويل المزروع باعداد اكبر من السيارات قدرت اننا ، على هذا السير البطيء ، لن نصل قبل عشرين دقيقة . عشرون دقيقة انتظار كانت كافية حتما لتقنع سعاد بأني لن آتي .. حسنا . لا بد ان اغري السائق الشرس بالاستعجال : « اذا أوصلتني للمهاجرين في عشر دقائق سأعطيك أجرة مضاعفة ، ما رأيك ؟ »

لم تكن السيارة تتقدم بأسرع من المشي العادي بكثير ، اما الان فكادت تقف . والتفت الي السائق وقد بدا لي ان بياض عينيه قد احمر قليلا وسط لون وجهه الاسمر الفامق :

ـ قلت لك الطريق مزدحمة !

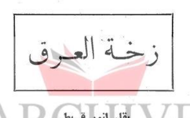
واجبته متحاشيا ان اثيره اكثر : « طيب ، طيب . امش كما تريد » .

ويبدو ان استسلامي السريع قد زاد في اثارته ، اذ قال لي بلهجة مفضبة :

ـ لا بد انك ترى بعينيك السيارات ... وأولاد الكلب الذين يعرقلون السير ..

بعد لحظة سمعته يكمل بنفس اللهجة المغضبة : طيب .. سأحاول.

وبدا زمور السيارة يلعلع . وبدات الاحظ ان السائق لم يعد يسير بالدور ، كما كان حتى الان يفعل ، بل طفق «يدوبل» على كثير من السيارات مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار بمهارة عجيبة. ثم مرق بين سيارتين على يمينه ، وكادت الاخيرة تصطدم بنا لولا ان سائقها شد الفرامل ، مما جعل دواليبها تصطك بالاسفلت . وخيل لي ان السائق معتوه. وندمت على اني استعجلته . خطر لي ان اطلب منه ان يتريث ، الا اني لم اجسر . ربما شتمني ، وربما ...



بقلم انور قريطي

حسنا ، سأتركه يسير كما يريد . بقي برهة يسير حسب الدور ثم سنحت له ثغرة بين سيارتين على يميننا تماما وتسيران في نفس الاتجاه . ساعة انحرف الى اليمين ليدخل بينهما لمحت الترام . كان مقبلا علينا . ملنا الآن الى اليمين ، لنجد ان الثغرة بين السيارتين قد ضاقت جدا ، بحيث صار مستحيلا ان ندخل فيها . عشرة امتار بيننا وبين الترام . حاول السائق ان يستدير الى اليسار . خمسة امتار . استدار قليلا . متران . ويبدو ان المفاجأة قد اذهلته : اذ رأيته يكبس على الفرام بقوة، ويجلس كالابله بدون حراك . نصف متر .



ورأيت واجهة الترام تزحف نحونا : كتلة من الحديد خضراء ، بدت لعيني ، وانا في سيارة المرسيدس الصغيرة الواطئة ، ضخمة ومرعبة وحية كوحش أصم . لمحت سائق الترام يدور مقبض الفرامل بسرعة . وبقيت الواجهة المرعبة تتحرك . فرفعت ذراعي المكشوفين الى وجهي بدون ان اجد الوقت للتفكير بأي شيء .

رجة شديدة . قطع زجاج صغيرة انهمرت على ذراعي وثيابي. وشعرت حالا بشيء ثقيل ينكبس بسرعة على رجلي . ثم لم أعد احس بشيء.. لم افق الا وانا أعي بغموض أن أيديا تشدني ، وسط ضجة مختلطة مبهمة . فتحت عيني ، فرايت حشدا كبيرا حول السيارة ، وواحدا يشدني منها ، ولم اع اهمية ما حدث لي الا حينما رأيت الدم يسيل على ذراعي. حينما خرجت من السيارة احسست برجلي تتدليان بدون شعور مثل خشبتين . قبل ان يدخلوني في سيارة الاسعاف البيضاء القريبة القيت نظرة على السيارة الصغيرة فرايت ان طرفها الايسر ، حيث كنت اجلس ، متحطم كجانب من علبة كرتون مجعلك .. كذلك رايت السائق بشاربيه الصغيرين واقفا بجانب السيارة ، وقد بدا عليه انه لم يصب بأذى .

القوني على كرسي جلدي طويل داخل السيارة . وسمعت صوت المحرك ، ثم ادركت من بوق الصوت الحاد اننا نسير بسرعة .

حاولت بفضول ان احرك ساقي ، وسرعان ما ادركت من جديد انهما معطوبتان تماما . الدم الذي سال من يدي بدأ يلوث ثيابي وسطح المقعد . فجأة ، خطر لي ان رجلي ستقطعان . كنت قد قرات ـ لست ادري اين ، أن العظام المكسورة سرعان ما تتعفن مما يوجب قطع العضو المكسور . وقفزت الى ذهني

صورتي وقد قطعت رجلاي . بدت لي الصورة غير معقولة لحظة ثم تعودت عليها وصدقتها لدرجة ان الخوف جعل فكاي يصطكان، وشعرت بسخونة تتلبسني وتجفف حلقي .. وكاد يغمى علي من جديد .

« هكذا بلحظة .. اصير كسيحا ! سأمشي على عكازين ، أو على كرسي بعجلات ، مشوها ، عاجزا ! ولكن هل هذا ممكن ؟ كيف ؟ ماذا حل بسعاد الان ؟ لا بد انها رجعت الى البيت .. ولكني صرت كسيحا .. الرجلان ، كل ساقي ستقطعان ! الجامعة .. اصدقائي ، اي منظر شنيع سأبدو لهم ! غير معقول .. فقط منذ عشر دقائق كنت كاملا .. رجلان اصطناعيان ! كيف ، هل سأمشي اذا؟! لا . سابقى عاجزا .. وسعاد كيف اخطبها . هل اذهب الى بيتها محمولا ؟ وكيف ادرس في المستقبل؟ مدرس كسيح ! كيف اكتب على السبورة واتجول بين التلاميذ ؟ ستكرهني سعاد ! لا ، ستبكي .. سيغمى عليها ، ربما ... ما في فائدة .. لن تتزوجني !! يا الهي !. ولكني قليل الايمان .. لم أذنب ، مع ذلك ، بماذا استحققت هذا العقاب ؟ انا آسف ، يا الهي ــ عفوا : استغفر الله .. ولكن ما الفائدة ؟ سأبقى كسيحا ! مع ذلك ، استغفر الله . يا الهي ! سنة .. عشر .. اربعون سنة ، يا للفظاعة ! هل سأهرم وأنا مقعد ؟ طيلة هذه السنين سأبقى اصلي واستغفر الله ؟ اي وضع ! لن اتحمل ــ ومع ذلك ، استغفر الله . ولكني اذنبت .. طيلة السنين الاخيرة لم افكر فيه .. ولكني كنت مشغولا عنه .. عائلتي .. الجامعة .. سعاد .. كان يجب أن اصلي احيانا، مع ذلك .. انا المذنب ! استغفر الله .. »

سمعت هدير الفرام وصمت البوق الحاد الصوت . جاء ممرضان وحملاني الى نقالة . ونحن نصعد درج المستشفى اغمضت عيني وقد اعتراني يأس وشعور بالذنب عظيم ، زاد في شدته الألم الذي بدأ يخترق عظام رجلي مع كل هزة صغيرة .

شعرت بالنقالة تدار وبأننا ندخل الى مكان مظلم . فتحت عيني ورأيت الممرضين يحملاني الى طاولة للمعاينة جلدية ملساء ، في غرفة مستطيلة معتمة بعض الشيء . دخلت الغرفة ممرضة ، وتفحصتني بنظرة جامدة برهة ثم خرجت بدون أن تنبس بكلمة . ازداد الالم في ساقي . حامت ذبابة على وجهي ثم حطت على انفي ولسعتني . حينما رفعت يدي لأكشها شعرت بألم الجروح فيها صارخا ، فأكتفيت بأن هززت راسي . طارت الذبابة ، ثم حطت من جديد تحت عيني اليسرى . فاغلقت عيني بسرعة لاجعلها تطير . حين طارت رأيتها تحوم قليلا ثم تحط على ذراعي الملوثة بالدم . صوت اقدام . ثم دخل رجل طويل القامة وقد بدا بنظارتيه البيضاوين وشعره الاشيب والتجاعيد على وجهه على جانب عظيم من الهيبة . وقدرت انه الدكتور . وقف بجانبي ثم تفحص يدي . وبعد ذلك جس رجلني فصرخت «آه» ولمحت على وجهه سيماء امتعاض ، ورأيته يرفع حاجبيه تحت النظارات ، وحسبت انه يتعجب من الحادث الذي صيرني هكذا . فقلت له مفسرا :

ــ حادثة اصطدام .. الترام . دكتور .

ــ لا تتكلم .

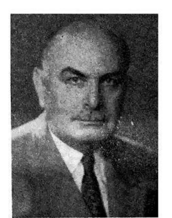
كان صوته خافتا لدرجة انه حينما سكتت شفتاه ، بعد الحركة القصيرة، ارتبت في انه تكلم . وعادت الى ذهني صورة نفسي كسيحا ومقعدا فكدت أجهش بالبكاء .. ربما منظر الطبيب الصارم والألم ، الذي اشتد في ساقي ، ضاعفا تعاستي . ووجدتني اصرخ : « دكتور ! رجلاي .. هل ستقطعهما ؟ » لم يتكلم .. بل انحنى ورفع رجلي اليمين وثناها قليلا . فصرخت (تقطيبة امتعاض) ثم رفع رجلي اليسرى و ثناها (لم اصرخ هذه المرة). بقي صامتا ، فظننت أنه نسي سؤالي :

ــ دكتور ! هل ستقطعهما ؟

ــ انت كثير الكلام . من قال لك انهما ستقطعان ؟ الكسور عادية . ستشفى في شهر .. أو في شهرين على الاكثر .

لم يخالجني اي شعور بالفرح رأسا ، الا أن قلبي اخذ يخفق في صدري بقوة .. ولما استعدت في ذهني نوبة الرعب والورع التي اصابتني منذ قليل ، شعرت بجبيني يزخ بالعرق ، من الخجل ربما ، وربما من الالم الصارخ في ساقي .

حلب — أنور قريطي



صديق شيبوب

صديق شيبوب

المؤرخ ، الناقد ، والصحفي الاديب

بقلم نقولا يوسف

طوى الموت فجر ٢٢ من ابريل ١٩٦٥ علما من شيوخ الادب بالاسكندرية ، ودعامة في صرح الصحافة العربية ، ومجاهدا في ميادين الخدمة الاجتماعية ، وثاني الشيبوبين الاخوين الكبيرين ، واحد المؤرخين لاحداث هذا العصر واعلامه وثقافاته ـ عرك ايامه ، وخبر رجاله ، وعاش وقائعه ، وصور انطباعاته ـ في مئات المقالات والنقدات ، والتراجم والتعليقات ـ ما لم ينقطع مسيله نصف قرن كامل !. (١)

وفي مدى هذا النصف قرن من الزمان ـ منذ ان جاء صديق شيبوب الى الاسكندرية فتى في العشرين، ليتخذها وطنا ومقاما الى نهاية العمر ، لم تنقطع صلته بحياتها الثقافية ، وانديتها الاجتماعية ، واهتماماتها التقدمية ـ كاتبا ومحاضرا ، وموجها وعضوا عاملا .. فتبنته الاسكندرية ، واكرمت وفادته ، ووضعته مع شوامخ ابنائها البررة العاملين .. وكان ، وهو العربي الغيور يرى الاسكندرية شطرا من وطنه العربي الكبير ، الممتد من الخليج الى المحيط ، فشمله بحبه والوفاء له جميعا ، واعطاه الكثير الاجل ، ولم يأخذ القليل ولا الاقل !.

وفي اللاذقية ـ المدينة العربية العريقة ـ الجاثمة على الشاطىء السوري بين البحر والجبال ، والمراعي والادغال، ولد صديق شيبوب في ٢٦ يوليه ١٨٩٤ بعد نحو سنتين من ولادة شقيقه خليل شيبوب (١٨٩٢ ـ ١٩٥١) .. وشب في اسرة طيبة متوسطة الحال ، تشمل والدين واخين واختين ، يرعاها ابوه ابراهيم شيبوب التاجر المقبل على مطالعة القصص القديم .. (٢)

وادخل في الخامسة من عمره « مدرسة الجمعية الروسية » في اللاذقية ليقضي بها عاما ، وليعود اليها في الشباب مدرسا ـ وكانت هذه المدرسة بمثابة فرع ابتدائي لمدرستي « الجمعية الروسية الفلسطينية » التي انشئتا في القرن التاسع عشر ـ احداهما ببيت جالا للبنات ، والاخرى بالناصرة للبنين ، لتخريج المعلمات والمعلمين ، وكانت تعلم العربية والروسية ، وفي الاخيرة تعلم عدد من الادباء ، اشتهر منهم ميخائيل نعيمه ، ونسيب عريضه ، وسليم قبعين ...

ثم تابع صديق دراسته الابتدائية والثانوية بمدرسة الاخوة « الفرير » باللاذقية . وبها زامل شقيقه خليل الذي تخرج في يوليه ١٩٠٨ ، وتبعه صديق عام ١٩١٠ وبها درسا العربية والفرنسية وادبيهما ، وفي هذه المدرسة وجد صديق من بعض معلميها من حبب الية الادب العربي وحفظ الاشعار، كان يذكر منهم توما اسطفان من طرابلس.

وفي البيت كان والده ـ لضعف في بصره ـ يطلب من ولديه ان يقرءا له قصة عنترة وامثالها ، مما غرس في نفسيهما حب المطالعة .. وفي البلدة انشأ الصحفي ادوار مرقس جريدة سماها : « المنتخب » اخذ الصبي يتمرس فيها على كتابة بواكير مقالاته ومترجماته ..

وما ان بلغ صديق السابعة عشرة حتى نزل الى ميدان العمل ، فاشتغل معلما للغة العربية بمدرسة الجمعية الروسية السالفة الذكر ، وظل بها ثلاث سنوات (١٩١١ـ ١٩١٤) .

واذا بالحرب العالمية الاولى تشب عام ١٩١٤ فاغلقت تلك المدرسة الروسية ، وحاقت المشاكل والاهوال بسورية ـ الولاية العثمانية ـ وتعطلت التجارة والملاحة .. وهاجر الكثيرون .. وكان الاب قد توفي في ربيع ١٩١٣ ولحقت به الام بعد عشرين شهرا .. وبلغ نعيهما خليل الغائب في الاسكندرية فرثاهما في شعره .. وارتحل صديق الى الاسكندرية في خريف ١٩١٤ حيث سبقه اليها اخوه خليل في اكتوبر ١٩٠٨ ، ولحقت بهما بعد قليل شقيقتاهما الكبرى والصغرى ..

وهناك في المهجر السكندري العربي وجدت الاسرة الصغيرة وسطا عربيا لم تشعر فيه بالغربة . فاللغة والعروبة والشعب ثم البيئة البحرية كانت تماثل ما في بلدتهم .. وكانت افواج المهاجرين تتقاطر منذ اواخر القرن التاسع وبخاصة في عهد السلطان عبد الحميد ...

ونزل الشاب الصديق بموطنه العربي الثاني ، حاملا معه مؤثرات البيئة الجبلية ، وانطباعات الشواطىء البحرية الى جانب السجايا الاصيلة العربية .. وهنا تلقاه شقيقه

الشاعر خليل شيبوب ، فكان له الاخ والمرشد والصديق ، وما لبث ان تعرف في مر الايام بادباء المدينة وفنانيها . فعرف الكاتب الصحفي عبده بـدران (١٨٦٧ - ١٩٢٤) وكان قد جاء من قرية وادي شحرور بلبنان ، واستوطـن الاسكندرية منذ صباه ، وعمل بجريدة « الاهرام » فـي عهدها السكندري مع صاحبيها - ابني خالته سليم وبشاره تقلا - وانشأ بها مع الشيخ نجيب الحداد واخيه امـين الحداد صحيفة « لسان العرب » اليومية ، ثم اصـدر « الصباح » الاسبوعية (١٩٠٠ - ١٩٠٦) ، والتحق منذ عام ١٩١٧ محررا بجريدة « البصير » ، وايد بمقالاتـه الملتهبة ثورة ١٩١٩ الوطنية ، مطالبا بالحرية والاستقلال .

كذلك عرف الصحفي القصاص طانيوس عبده (١٨٦٩ - ١٩٢٦) الذي جاء من بيروت ليصدر صحيفتي « فصل الخطاب » و « الشرق » ، وليحرر في «البصير» و «انيس الجليس» ، وليؤلف ويترجم من الروايات والمسرحيات ما ينيف على العشرين . . والصحفي الاديب جورج طنوس - المولود بالاسكندرية - (١٨٨٠ - ١٩٢٦) والذي حرر في المؤيد والوطن والمنبر والاهرام والبصير . . وانشأ مجلات : القصص ، والرقيب والكوثر ، والاقلام . . وشارك في ثورة ١٩١٩ بقلمه وناوأ الاحتلال ... وايضا خليل زينية (١٨٦٥ - ١٩٤٤) الذي جاء من بيروت في مستهل شبابه ليحرر في الاهرام ، وصدى الاهرام . . ويراسل الصحف ، ويكتب في البصير (٣) .

وكان خليل مطران قد استقر بالاسكندرية عام ١٨٩٢ ، وحرر في الاهرام ، ثم انتقل الى القاهرة ، ولم ينقطع عن الكتابة ونظم الشعر حتى وفاته عام ١٩٤٩ ولا عن زيارة الاسكندرية وبخاصة في الصيف ، فيعقد بها جلساته . . ويلازمه الشيبوبان اذا حضر ويراسلانه اذا رحل ، فتأثرا بادبه وسماحته ، وظلا الى نهاية حياتهما يدخران له اطيب الذكريات ، وكتب عنه صديق شيبوب الكثير من المقالات والاشارات ، كان مزمعا ان يجعلها نواة لكتاب عن حيـاة مطران وادبه . .

وبالاسكندرية تعرف صديق بسليم سركيس (المتوفـي ١٩٢٧) ، والياس فياض (١٩٣١) ونقولا فياض (١٩٥٩) وبشر فارس (١٩٦٣) . . وبغيرهم من ادباء الثغر وزائريه العرب والاجانب . . وكثيرا ما كانت مقالاته او احاديثه عنهم تتضمن الطرائف والذكريات الشخصية الى جانب الاشادة باعمالهم الادبية . .

ويسجل فيليب طرازي في كتابه : « تاريخ الصحافـة العربية » اسماء الصحف العربية التي صدرت بالاسكندرية فيما بين ١٨٧٣ - ١٩٢٩ ، فاذا هي في نحو ١٢٨ جريدة و ٨٠ مجلة ما بين كبيرة وصغيرة ، ومعمرة وقصيـرة الاجل . . وقد عاصر صديق الكثير منها ، وعرف جـل اصحابها ومحرريها . . وكان في مقدمة تلك الصحـف العربية السكندرية ، انتشارا وأهمية ، اربع صحف يومية هي : « البصير » (١٨٩٧ - ١٩٦٢) ، و « وادي النيل » (١٩٠٨ - ١٩٣٦) التي رأس تحريرها محمـد الكلـزة ، و « الاهالي » (١٩١٠ - ١٩٢١) ورأس تحريرها عبـد القادر حمزة ، و « الامة » التي اصدرها توفيق طنوس عام ١٩١٥ . . وضمت هذه الصحف رهطا من كتاب الثغر القائمين على تحريرها . . وكانت لهم في مكاتبهـا وفـي خارجها ندوات ومجالس . . واندمج صديق في ذلـك الوسط الصحفي تربطه به نزعته الصحفيـة ، واختـص « البصير » بمقال اسبوعي تحت باب : «الحياة الادبية» . . كما كان ينشر كلماته ونقداته في غير البصير من صحـف ومجلات ، مشهورة ومغمورة ، كلما سأله اصحابها كتابتها . . وقد تظهر له مقالة باسمة في صحيفـة لا يعرفهـا ، ينشرها صاحبها نقلا عن مقالته في البصير او غيره ، او يعيد المنقود نشر كلمته النقدية في مجلة او صحيفة اوسع انتشارا . . (٤) .

وهناك حيث اعتاد الشعراء الشباب السكندريون عقد مجالسهم في القهوة او في « حديقة الشلال » ملتفين حول استاذهم الكبير الشاعر عبد الرحمن شكري (وكان منهم الشعراء : عثمان حلمي ، وعبد الحميد السنوسي ، ومحمد مفيد الشوباشي ، وعبد اللطيف النشار ، وزكريا جزارين ، وحسن فهمي ، وعبد الحكيم الجهني) ، كان يحلو لصديق شيبوب ان يستمع لاشعارهم ، ويبادلهم الراي . . وكـان لا ينظم الشعر ، ولكنه ظل طيلة حياته مغـرما بالشعـر والشعراء من العرب وغيرهم ، يطالع دواوينهم ، ويتذوق جيدها ، وينقدها في الصحف ، ويروي لك اخبار الشعراء وما يحفظه من شعرهم ، ولا يفوته حضور المهرجانـات الشعرية التي كانت ولم تزل تعقد بالاسكندرية ، وكثيرا ما شارك فيها بالقاء محاضرة نثرية ، كما فعل في مهرجـان الشعر العربي الرابع حين القى كلمة عن شقيقه خليـل شيبوب ، أو في الحفلات التذكارية لعبد الرحمن شكري ، وعثمان حلمي وغيرهما ، رحمهم الله . .

وتوظف صديق شيبوب في مطلـع شبابه عام ١٩١٦ بالمحكمة المختلطة ، ليكسب عيشه ، وساعده على ذلك اتقانه العربية والفرنسية ، والمامه ببعض الانجليزية ، وبقي في هذه الوظيفة حتى ١٩٤٩ حين انتقل الى المحاكم الاهلية . . ولكنه ما لبث ان استقال من هذه الوظائف في فبراير ١٩٥٠ وتفرغ للكتابة والصحافة ، واتخذهما عمله الاساسي حتـى يوم وفاته . . واختارته جريدة « البصير » محررا رئيسيا بها ، وكان صديقه شارل شميل مديرا لها . . فبدأ فـي

(١) جريدة « المساء » بالقاهرة في ١٣ مايـو ١٩٦٥ - « صديق شيبوب » - كلمة وداع - لنقولا يوسف . (٢) مجلة «الاديب» - ابريل ١٩٦١ : « خليل شيبوب » لنقولا يوسف . (٣) الكتاب الذهبي فـي يوبيل « البصير » ١٨٩٧ - ١٩٤٧ مطبعـة البصير بالاسكنـدرية .
(٤) انظر مقالة لمحمد رجب البيومـي - « الاديب » يناير ١٩٦٥ عن « صديق شيبوب » . (٥) محمود تيمور - مجلة « القصة » بالقاهرة عدد مايو ١٩٦٥ ص ٣٢ .

ذلك العام يتعيش من قلمه وحده ، كما اصبح عضوا بنقابة الصحفيين .. ولم يكن غريبا على هذه الجريدة حيث كان ينشر بها منذ ١٩٢٨ مقالاته الادبية كل اسبوع تحت عنوان « الحياة الادبية » .. وظل يحرر هذا الباب حتى اوقف اصحاب « البصير » جريدتهم في اول ابريل ١٩٦٢ — وحينما صدر « البصير » فترة قصيرة عن مطبعة اخرى وادارة جديدة ، كان صديق يرأس تحريره ، حتى احتجب نهائيا .. وفي خلال تلك المدة — في حوالي ثلاثين عاما — نشر صديق في البصير بضع مئات من المقالات الادبية ، والنقدية ، والتاريخية ، والتعريف بالمؤلفات والمترجمات ، ودواوين الشعر .. وكتب عن الشعر والكتاب ، العرب والاجانب ، محدثيهم وقدمائهم .. وعلق على الندوات والمحاضرات والمهرجانات .. وبحث في الادب في عهد الثورة ، وفي الادب بالاسكندرية ..

وعندما احتجب «البصير» ، رأس صديق تحرير جريدة « الاتحاد المصري » السكندري ، حتى اليوم الاخير من حياته ، ونقل اليها « بابه الادبي » الاسبوعي ..

وكان مكتبه في هاتين الصحيفتين ، موردا عذبا كثير الزحام ، يرده الادباء المقيمون والزائرون ، منهم من جاء للتعارف والحديث ، او للاسترشاد وتبادل الراي .. ومنهم من حمل اليه مقالة او قصة او قصيدة لينشرها له في الجريدة .. او ليهدي اليه مؤلفا جديدا يكتب عنه .. فيقرأ كل ما يقدم له في عناية ، وينشر عن انتاج الادباء تشجيعا للاقلام وبخاصة الناشئة منها .. ويكتب النقد والتوجيه في سماحة ورفق ، ولا يخلو بحثه النقدي من رأي خاص او توجيه رقيق ، او تحليل دقيق ..

ولم تكن كتاباته مقصورة على صحف الاسكندرية ومجلاتها ، فكثيرا ما تنقل قلمه خلال الاعوام الخمسين ، بين الكثير من صحف القاهرة والاقطار الشقيقة ـ كالمقتطف ، والكتاب ، والرسالة ، والثقافة ، ومجلتي بالقاهرة ، ومجلة « الاديب » البيروتية ، و « الحديث » الحلبية .. وغيرها من مجلات قديمة وحديثة ، احتجب بعضها من سنين ..

وكان من السهل ان تجمع هذه المقالات المنوعة المشتتة ، في شكل كتب نقدية وتاريخية ، يتضمن كل منها موضوعا مستقلا ، ينتفع به القارىء في يسر .. وكان صديق قد اصدر مؤلفاته الخمسة المطبوعة ، عن بعض مقالاته بعد ان عدل فيها واضاف اليها .. غير ان عمله الصحفي اليومي لم يدع له فرصة التفرغ لهذا العمل ، ثم لم يفسح الاجل لانجازه ، فترك آثاره جميعا — ما بين مخطوط ومنشور في الصحف — وديعة لدى من شاء من الناشرين .. (ولا ننسى ان الكثير من مقالاته كان يوقعها بحرفي ص.ش) .

اما مؤلفاته المنشورة هذه فهي :

— « جوته » — كتاب موجز عن حياة الشاعر الالماني الكبير ومؤلفاته — ظهر في « سلسلة اقرأ » بالقاهرة في اكتوبر ١٩٤٥ .

— « معارك الاسكندرية » ظهر عام ١٩٦٢ وهو بحث تاريخي يستعرض المواقع الحربية والغزوات التي تعرضت لها الاسكندرية منذ القديم ، والاشادة بكفاح اهلها وانتصاراتهم في تلك المعارك الاستعمارية ..

— « معركة السويس » نشر عام ١٩٦٢ بالاسكندرية تحدث فيه — في سياق تاريخي — عن العدوان الثلاثي على بور سعيد ، وعن هزيمته امام وحدة الشعب وقوة الحق.

— « القومية العربية » ١٩٦٣ كتاب تاريخي يبحث في اصول هذه القومية ومقوماتها وقوتها ، ويعد مرجعا موجزا رائعا في بابه ..

— « شخصيات عربية » ١٩٦٤ ويشمل عددا من المقالات عن خمسة من ادباء العرب : الجاحظ ، ورفاعه الطهطاوي ، وتوفيق البكري ، وجرجي زيدان ، واحمد امين .

واما المؤلفات التي كان يعمل على انجازها ، ونشر اكثر فصولها في « البصير » وغيره من الصحف ، ولم يقدمها للطبع فمنها :

— مجموعة من الاقاصيص الهادفة — نشر بعضها في البصير فيما بين ١٩٢٠ — ١٩٢٢ وبعضها في السنين الاخيرة ، وكلها مؤلفة ، الى جانب عدد اخر من الاقاصيص المترجمة عن الفرنسية ، او من ملخصات القصص العالمي مثل « التلميذ » لبول بورجيه ، وتريستان وايزو .

— كتاب عن الشاعر السكندري « ابن قلاقس » الذي عاش في القرن الثاني عشر للميلاد .. وكان خليل مطران قد نشر ديوانه أو معظمه منذ اربعين عاما ..

— ابحاث عن الشعراء : احمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، ومطران ، وابو شادي . وعن الجاحظ ، ومي زيادة ، وجان ارقش ، والمتنبي ، وبلزاك ، وكيركجارد ...

— « سكندريات » ويشمل مقالات منوعة ومحاضرات عامة عن تاريخ الصحافة بالاسكندرية ، وجمهورية اندلسية بالاسكندرية ، والاسكندرية في الف ليلة وليلة ، والادب في الاسكندرية ، ومكتبتها الشهيرة ، ومنارتها ... الخ.

— محاضرات عن : « جبال العلويين » و «الادب الخالد» و « الادب كمهنة » و « الادب في عهد الثورة » ..

— تراجم موجزة عن الكثير من ادباء الشرق والغرب واعمالهم الادبية ..

— نقدات لعشرات من الكتب ودواوين الشعر في هذا العصر ، وتعليق على قصة « اوندين » لجيرودو .. وترجمة كتاب « الكلمات » لسارتر الذي ترجم نصفه ومات قبل ان يتمه .

واسلوب صديق شيبوب في كتاباته الادبية ، وتعليقاته الصحفية ، سهل سلس ، خال من التعقيد والتنميق ، والتكلف والابهام .. وهو دائما واضح ناصع ، تحمل كلماته المعاني الواقية ، والتحقيقات الصحيحة ، والاراء الصريحة — اسلوب معلم واسع الثقافة والاطلاع — يخاطب قراءه والمستمعين اليه ، مبتغيا الافادة والارشاد .. وقد يتعجل

احيانا انجاز مقالة صحفية في طريقها الى المطبعة فلا تعوزها الدقة والسلاسة ..

وقديما قالوا : الاسلوب هو الانسان ، اي ان اسلوب الكاتب صورة لنفسه ، وكان صديق ، كما عرفه اصدقاؤه جميعا ، رجلا نبيلا كريما ، لم يحد قط عن النزاهة والسماحة ، والصدق والصراحة .. ولسنا نعرف له عدوا واحدا حتى بين الكتاب المتنافسين والمتحاسدين ، وكان منهم من يلجأ اليه للمشورة والنصح . كان صديقا للجميع مترفعا عن الصغائر والدنايا .. وعاش عزبا لم يتزوج ، يسبغ ابوته على تلاميذه ومريديه ، واهله ومواطنيه .. وكان محدود الرزق وعضوا في الجمعيات الخيرية .. ومحدود الفراغ وعضوا في الجماعات الادبية ، ومحتاجا للاعتكاف ومدعوا الى مختلف الندوات والحفلات !..

.. يرثيه صديقه محمود تيمور في قوله : « .. كانت الاسكندرية مقامه ، فيها لمع اسمه ، وبرزت شخصيته ، فلم تكن تخلو منه ندوة من ندواتها جليسا انيسا ، او محاضرا بارعا ، او مشاركا في مسعى من المساعي التي تستهدف خدمة الثقافة والمجتمع ... لم يكن ادبه وليد عاطفة جياشة وقريحة وقادة فحسب ، ولكنه كان مع هذه وتلك يستمد اصالته وقوته من ثقافة عالية واسعة الاطراف والمام شامل بما يجد من تيارات فكرية شتى ... وربما رايته في نقده مؤيدا او معارضا ، بيد انه لا يحتد في معارضة ولا يشتد في تأييد . طابعه الاعتدال ، ورائده الصراحة ، وقوام النقد عنده عفة القلم ... » (٥)

واذا قال الكثيرون ان صديق شيبوب « كاتب كبير » ، فان القليل منهم من يحرص على القول بانه : « قارئ كبير » .. ولقلما يكون الكاتب معلما نافعا ذا اثر قبل ان يكون كثير القراءة واسع الاطلاع .. وقد نشأ صديق اديبا يستهويه الادب والمطالعة منذ صباه الباكر في اللاذقية .. ومنذ ان جاء الى الاسكندرية وهو يتابع تثقيفه الذاتي الذي بداه في صباه .. وكان يعلم انه لا يستطيع ان يثقف غيره بالكتابة والمحاضرة والاحاديث ، حتى يثقف نفسه ويزيدها معرفة .. فلم ينقطع طيلة حياته عن قراءة كل ما يقع له من كتب عربية وفرنسية ـ الى جانب مجلات الشرق والغرب .. فاطلع على بضعة آلوف من تلك الكتب ، وما كان يترجم الى هاتين اللغتين من آداب الشعوب وتراث الامم ، واعانه اتقانه اللغة الفرنسية على استيعاب روائع الادب العالمي فقرأ في التاريخ والتراجم ، وقرا القصص العالمي ، وطوف بين دواوين الشعر ينهل منها ويحفظ وينقد .. وعب من كتب العلوم ، والفلسفة والدين واللغة والسياسة .. ولم يقنع بمطالعاته الخاصة في بيته فكان المواظب على المحاضرات العامة ، والمهرجانات الثقافية ، وحفلات الذكرى في مختلف الاندية والمعاهد ، مستمعا او مشاركا في الحديث .. فاذا اوى الى فراشه في هداة الليل ، فالكتاب في يمينه يتحدث اليه صامتا ، او جهاز الراديو بجواره يسمعه مسرحية او حديثا او خبرا حتى يسلمه هذا وذاك الى احلام النوم .. واسلمه الكتاب في ليلته الاخيرة الى عالم الخلود ، ولما جاءوا ليوقظوه في الصباح الباكر ، لم يجدوا امامهم غير جثمان مسجى فارقه الروح الى ربه في سلام ...

ولم يدفعه الى هذا الاقبال على المطالعة والبحث والدرس غير الشغف الفريزي الذي شب معه ، بالتزود بالمعرفة والتثقيف الذاتي .. وقديما قالوا : « فهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال » .. وطلب صديق العلم وحده ، ولم يطلب المال ، ولم يعبأ به ولم يجمع منه شيئا .. وكأنما راى ان الغاية من الحياة هي التعلم والتثقف والتطور .. ومن هذا الرصيد الثقافي الضخم ، كان يجري قلمه ويتدفق كالنهر ..

ولا ينسى المتحدثون عن صديق شيبوب تلك الجماعة الادبية التي عاشت بالاسكندرية نحو ثلاثين عاما ، وكان من روادها ومؤسسيها ورؤسائها اعني « جماعة نشر الثقافة » .. فقد اجتمع عام ١٩٣٢ لفيف من ادباء الاسكندرية واكثرهم من الموظفين من تجمع بينهم رابطة القلم ، وراوا ان يكونوا منهم هيئة تجمع شملهم ، وتنشر نتاجهم ، وتخدم الحركة الثقافية والادب العربي في المدينة .. وكانت الهيئات الادبية العربية يومذاك قلة بجانب الهيئات والاندية والجماعات التي انشاتها هناك الجاليات الاجنبية على مختلف اجناسها ولغاتها اذ كان لكل جالية صحفها ومجلاتها ، وجماعاتها ومنتدياتها ..

ووضعت « جماعة نشر الثقافة » لها قانونا ، واتخذت « نادي الاتحاد العربي بالاسكندرية » مقرا .. كما كانت تجتمع كثيرا في القهوات المطلة على « الميناء الشرقي » وبخاصة « قهوة كريستال » ، وفى « نادي الموظفين » ، للسمر والمناقشة ، واستقبال الادباء القادمين من الاقاليم .. وانتخبت الجماعة الشاعر خليل شيبوب اول رئيس لها ، فظل يراسها ثلاث سنوات ثم ترك منصبه لغيره وبقي عضوا عاملا بها حتى نهاية حياته (عام ١٩٥١) .. وتتالى على رئاستها كل من الادباء السكندريين : اللواء عبد المنصف محمود ، واحمد الطاهر ، والمرحومين الشاعر عثمان حلمي وصديق شيبوب الذي ظل رئيسا لهذه الجماعة حتى وفاته ، وكان عضوا بها منذ انشائها ..

ولم يفتر نشاط هذه الرابطة خلال تلك الاعوام الثلاثين ونيف ، الا فى سني الحرب العالمية الثانية وخلال ضرب الاسكندرية بقنابل الطائرات ، وما تبع ذلك من هجرة الكثيرين من اهلها الى المدن الداخلية .. فكان معظم نشاطها فى الثلاثينيات ، واقامت مهرجانات ادبية لابن خلدون ، والبارودي ، وشوقي ، وحافظ ابراهيم ، وفي سنواتها الاخيرة لخليل شيبوب ، وعبد الرحمن شكري ، وعثمان حلمي .. واخيرا لصديق شيبوب .. وانشات مدرسة شعبية تطوع اعضاؤها الى القاء الدروس بها ،

سهير

الى ابنتي البعيدة عني في الكويت

•

فتق الورد لذكراك جيوبه !
وهفا القلب لدنياك العجيبه
اين انت الآن يا عصفورة زانت جناني
أباحضان الحنان
ام على الاعشاب تغفين - واحلام الاماني
ام بذاك الرمل ترتاح خطاك
ام على الامواج تنداح رؤاك ؟

ها انا امضي بذكراك الجميله
للظلال الخضر ... في تلك الخميله
لضياء القمر السحري ... لليل الجميل
لغدير تتمرى فيه قامات النخيل
ولصياد شجي الصوت في ماء الخليج
يحمل الآمال والخيرات للشط البهيج
فمتى يمطني الشوق الى ارض الكويت
وارى اهلي وفردوس اليمام الحلو بيتي !

نيودلهي — يعقوب الرشيد

وكان خليل شيبوب يدرس بها الادبين العربي والفرنسي ، وصديق شيبوب يعلم تاريخ العرب .. كما كان الشاعر عبد اللطيف النشار ، والمؤرخ يوسف فهمي الجزائري وغيرهما يدرسون بعض المواد الادبية والعلوم الاجتماعية والرياضية ..

والحق ان اسهام صديق شيبوب فى نشاط هذه الجماعة خلال هذه السنوات الطوال ، بالمحاضرة ، والتعليم ، والاشراف ثم بالرئاسة ، كان ملحوظا وكان تطوعا بلا اجر .. كما ان مشاركته فى نشاط اندية الشبيبة ، ونقابة الصحفيين ، وبعض الجمعيات الخيرية ، واخيرا في « الهيئة المحلية لرعاية الفنون والاداب بالاسكندرية » كانت جميعا موضع التقدير والاعجاب ..

ومن آراء صديق شيبوب قوله :

« الاديب بالرغم من فرديته فيما يتعلق بالاحساس بالجمال والتعبير عنه ، لا يعيش فى انطواء على نفسه ، ولا ينصرف الى البحث عن ذاتيته ومؤثراته ، بل انه احد افراد امة لها بيئتها وتقاليدها ، ولها مشاكلها التي تعالجها، ولها آلام ترجو الخلاص منها ، وآمال في مستقبل زاهر . وهو يشارك امته في جميع هذا - يتأثر بما تتأثر به من اسباب الخير والشر ، والعزة والمذلة ، والسعادة والشقاء .. وهكذا نجد ان الاديب مواطن ، وهو كأي مواطن له واجبات نحو امته ، وله عليها حقوق » .

واخيرا سكت هذا القلم الذي عمل فى حقل الثقافة والارشاد نيفا وخمسين سنة .. ورحل صديق شيبوب الىدار البقاء عقب سكتة قلبية مفاجئة وهو مستغرق فى النوم ، ومن حوله الاوراق والاقلام ، ونحو عشرة كتب جديدة ارسلها اليه اصدقاؤه الكتاب والشعراء ، ليكتب عنها رايه فى الصحف والمجلات ، وظهرت يوم جنازته مقالتان له عن كتابين من تلك الكتب ..

وبات تاريخ صديق شيبوب الادبي ، ومن قبل تاريخ شقيقه خليل شيبوب القلمي ، جزءا من تاريخ الحركة الثقافية العربية بالاسكندرية فى هذا الجيل .

الاسكندرية — نقولا يوسف

النساء خطيبات بالفطرة

ترجمها عن الانجليزية **مبارك ابراهيم**

* * *

قال القدماء : ان الفيلسوف سقراط ٤٧٠ ــ ٣٩٩ ق. م. قد تدرب على الخطابة على يد امراة يقال انها(اسباشيا) او (اسبازيا) ٤٧٠ ــ ٤١٠ ق. م. وهي سيدة اغريقية مغامرة . ولدت ــ على وجه الاحتمال لا التحقيق ــ في مدينة ميليتيوس واشتهرت بجمالها وذكائها وثقافتها الواسعة . وظفرت بحب (بركليس) ٤٩٩ ــ ٤٢٩ ق. م. وقد تزوجها بعد تطليقه لزوجته الاولى .. وكان لاسبازيا الاثر اعظم الاثر فيكثير من الشئون العامة . وقد ولدت له ولدا واحدا اسمته (بركليس) على اسم ابيه ..

فان صحت هذه الرواية كان للمراة في كل زمان ومكان ان تزهى وتفخر وان تختال وتتكبر وان تصعر خدها للناس وان تمشي في الارض مرحا . وان تملأ ماضغيها بقولها : يكفيني فخرا ان سقراط وهو من هو بعد صوت وجلالة قدر كان تلميذا لواحدة من اسلاف المراة وجداتها ..

ولقد طالما نظرت الى فن الخطابة بوصفه فنا اختصت به المراة واختص بها .. ولقد طالما تساءلت : لم لا تكون كراسي الاستاذية في هذا الفن على (الاستاذات) لا الاساتذة ؟

ولقد قيل عن بعض الرجال على سبيل المدح انهم يستطيعون التحدث ساعات وساعات في اي موضوع من الموضوعات .. ولكن الحق يقتضينا ان نعترف بان هذا الشرف هو وقف على السيدات وحدهن . ذلك لان كثيرات من بينهن يستطعن التحدث ساعات وساعات عن لا شيء !

ولقد عرفت امراة كانت تفرع الحديث وتشعبه في موضوع يدور حول حواشي ثوبها واهدابه .. وكانت احيانا تبالغ في لوم خادمتها وتملأ الدنيا دويا اذا كسرت فنجانا من الخزف . وكنت تسمع منها في هذه المواضيع التافهة صنوفا والوانا من التعبيرات البالغة الدقة . والتي يسميها الفرنسيون (كلمات الخصوص Les mots techniques

ومن كان يشك في هذا القول فليذهب الى سوق من الاسواق ليشهد العجب العاجب من الوان الجدل الذي يدور بين النساء .

واول صنف اذكره من صنوف النساء الخطيبات هن اولئك اللائي يستخدمن لاثارة اهواء النفوس واشجانها . وهو ضرب من ضروب البلاغة برعت فيه البراعة كلها امراة سقراط . بل لقد كانت هي في هذه الناحية ابرع واقدر من استاذته الاولى التي اسلفنا القول عنها ..

واما الصنف الثاني فهن اولئك اللائي اختصصن بالتشهير والتعنيف . والنساء من هذا الصنف قد أوتين القدرة على تلفيق الاحاديث وقص اخبارها في سهولة وسلاسة وانسجام . فتراهن تارة يجعلن من الحبة قبة . وتراهن حينا يجعلن من القبة حبة .. وهن حكاءات بارعات يلعبن بالالفاظ والعبارات كما شئن وشاء لهن الهوى .. وهن يقصصن عليك القصة الواحدة في صور عديدة فيجعلنها تارة مأساة . ومرة ملهاة . وطورا بين بين ..

ولقد عرفت سيدة ممن تقدمت بهن السن جعلت من قصة زواج غير موفق موضوع احاديثها طوال شهر كامل . فكنت تراها تلوم الزوجة يوما . وترثي لحالها يوما آخر . وتسخر منها في اليوم الثالث . وتعجب لامرها في اليوم الرابع وتبدي لها من امارات السخط والحنق صنوفا والوانا في اليوم الخامس واخيرا وبعد ان قتلت الموضوع بحثا ودرسا من ناحية هذا الجانب جانب الزوجة راحت تزور الزوجين الحديثي عهد بالزواج ثم اخذت تثني على الزوجة على اختيارها الذي كان رائده العقل ثم اخذت تحدثها حديث الفواشي التي غشى بها بعض الناس ممن خبثت نياتهم والقوا بها ظلالا من القتامة حُولها وتمنت لو انهم كانوا اكثر معرفة بها وعلما ..

ومن ثم يتبين أن القدح والمدح اللذين يجيئان على ألسنة هذا الصنف من النساء انما يراد بهما ان يكونا عونا على تزجية الوقت ..

وهناك صنف ثالث من خطيبات النساء يمكن ان يندرج تحت باب خطيبات (القيل والقال) وبطلاته من النساء صاحبات الفضول اللائي لا يمللن الدوران في بيوت جاراتهن فترى الواحدة منهن تباهي بفصاحة منطقها في وصف حفلات الافراح . وترى اخرى تبدع في وصف تسريحات الشعر . وتفاخر ثالثة بانها تعرف كل طبق من الاطباق التي تطهى في بيوت الجارات والصديقات .. ثم تظل الرابعة ساعات الاصيل باكملها وهي تمتع صويحباتها بالحديث عن طفلها الصغير وعن امارات ذكائه والمعيته وذلك قبل ان يكون هذا الطفل قادرا على النطق بالحروف ...

وهناك صنف رابع من النساء يمكن ان يسمى بالنساء ذوات الجراة والدلال . والواحدة منهن لكي تتيح لنفسها ميدانا للحديث منفسح الرقعة تراها تكره وتحب .. وتراها تجافي وتصافي في وقت واحد .. وتراها تخترع المعارك اختراعا . وتراها توهم سامعيها ان عليها التزامات وحقوقا لكل رجل من معارفها . ثم نراها تتظاهر بالحزن وقلبها يضحك . وتراها تضحك وقلبها عابس ..

وهي تأتي بهذه الحركات التمثيلية وكأنها لم تزد على ان حركت احدى يديها او اشارت بطرف العين . او عبثت بمروحتها ..

وبعد فلقد طالما تحسرت في استكناه ذلك السر . سر الموهبة التي اوتيتها المرأة في اتقانها فن الحديث اتقانا لم يبلغه رجل من الرجال فخطر ببالي حينا ان ذلك راجع الى ان النساء لم يؤتين القدرة على الكتمان كما اوتي الرجال..

قلب

●

قلبي يسيح والدنى ترسي ... في شاطىء النيران والبؤس

مراوح الاهواء أشرعة ... جنة بها مركبة الحس

يا صدر يا كهف اللهيب ، على ... رمالك السوداء ما ينسي

حرائق الرومان في كبدي ، ... في محجريّ خمرة الفرس

والسائح المجنون تجذفه ... الاحلام ، فالاهداب من جبس

كأنه محارة علقت ... ما بين غاب الطين والنفس

زرعت في لؤلئها فصحت ... مجامر الالوان في الطرس

بخفقة ، عصف البحار اذا ... طاب لظى ، ورعشة الهمس

جبلته بالشوق ـ مترعة ... اعراقه ـ قيثارة الانس

* * *

لي من جروحي ألف خابية ... مرصودة لليل ... للشمس

ألوحي فيها روحها مزجت ... بطيب آمالي مع الياس

تحرني ، للسكب ، قافية ، ... لي ، في صداها ، حطمة الكأس

أنثى كما الخيلان في جزر ... مسحورة برقية العرس

يا نجمة حطت بصدر دنى ... يغوي بها غد رؤى الامس

قلبي يدور والوجود له ... سارية تغدو ولا تمسي

والبدء موصول برحلته ... مع الرياح فهو لا يرسي

موسى المعلوف

وقد يرجع ذلك الى نقص او وهن في القوة الحافظةعندهن وهن لذلك يرين لزاما عليهن انينطقن بكل ما يمربخواطرهن فاكتسبن هذه القدرة بحكم الدربة والمران .. ولقد وعدني صديق لي من ابرع العالمين بالتشريح ان يشرح لسان امرأة وان يفتش في زواياه ليعرف ان كان يدخل في تركيبه عصير معين يكسبه الذلاقة والانطلاق . وليعرف ايضا ان كانت ألانسجة التي يتكون منها ذلك اللسان قد دخل في تركيبها خيوط أكثر دقة واكثر مرونة او كانت فيه بعض عضلات نادرة تجعله يعلو ويسفل . ويصعد ويهبط في اهتزازات سريعة وذبذبات مفاجئة .. او ان في ذلك اللسان وهو أداة الثرثرة وجهازها بعض القنوات التي لم يكشف العلم عنها الغطاء بعد ، وهي تجري اليه من الراس او القلب . وان هذه القنوات تجلب اليه فيضا منعصارات المخ ...

وبعد فاي الاسباب التي اسلفنا القول فيها هو اقربها احتمالا ؟

واني لارى في ذلك صحة ما قاله ذلك الرجل الارلندي وذلك بعد ان قضى بضع ساعات في حديث مع واحدة من خطيبات النساء وذلك انه قال لها : انه يؤمن الايمان كله بان لسانها يغمره فيض من السرور عند ما يغلبها النعاس. ذلك لان ذلك اللسان المسكين لا يجد لحظة يهدأ فيها ويستريح وهي يقظى ...!

وبعد فان مترجم هذا البحث لسوف يلقى اللهوهو مؤمن الايمان كله بعظم قدر المرأة ونبل رسالتها وسمو مكانتها.. وكيف لا ومن النساء : امي .. وزوجي .. وابنتاي .. وخالتي ...

القاهرة — **مبارك ابراهيم**

المرح والهزل في قصر العدل في فرنسا

الشهود والدعابة المتهمون والدعابة

بقلم جان ـ بول لاكروى ترجمة سمير شيخاني

* * *

الشهود والدعابة

في محكمة الجنايات ، كما في المسرح ، ليس ثمة ادوار سيئة ، بل هناك ممثلون سيئون . وكثيرا ما يتفق ان يتغلب الشاهد ـ وهو ممثل كذلك ـ على المتهم ، ورئيس المحكمة والمحامي ...

كان الكسندر دوماس الابن يدلي بشهادته امام محكمة الجنايات في مدينة روان ، فسأله القاضي دو تورفيل :

ـ ما هي مهنتك ؟

ـ مؤلف مسرحي ، اذا جاز لي استعمال هذا التعبير في موطن كورناي .

فكان جواب رئيس المحكمة مقاطعا اياه بجفاف :

ـ لا بأس ، فهناك درجات مختلفة في كل المهن !

ولم يكن الرد لطيفا البتة !

ووقفت بعده مباشرة للادلاء بالشهادة ممثلة حسناء ، عزمت على الانتقام لمؤلفها المفضل . فلما سألها القاضي عن مهنتها ، اجابته :

ـ فتاة ، اذا جاز لي استعمال هذا التعبير في المدينة التي يحرقون فيها الفتيات (اشارة الى أحراق جان ـ دارك في مدينة روان) .

كان باسكال غروسيه من شهود اثبات الجرم في دعوى الامير بيير بونابرت الذي قتل برصاصة من مسدسه الصحفي فكتور نوار ، في آذار من سنة ١٨٧٠ . فسأله القاضي السؤال التقليدي :

ـ هل تربط بينك وبين المتهم صلة رحم او قربى ؟

فكان جوابه : لست ادري ، يا سيدي الرئيس ، فالاميرة ليتيسيا كان لها عشاق كثيرون !

وصلت « غري ديغو » راقصة الفرنش كانكان الشهيرة في ملهى « الطاحونة الحمراء » الى مقعد الشهود في محكمة جنايات السين ، وهي تتراقص وتتمايل لكأنها على خشبة المسرح . فتوجه اليها القاضي مارياج بقوله :

ـ اهداي ، ايتها الانسة ، فهنا لا ترتفع الساق ، بل الذراع ... قولي : « اقسم على ذلك ! »

وهذه نادرة أقرب الينا من الناحية الزمنية ... ففي سنة ١٩٥٢ جرت المحاكمة الاولى في قضية ماري بينار في مدينة بواتييه . وكان بين الشهود امرؤ يدعى « ديو » مهنته بيع لوازم دفن الموتى واقامة الاضرحة . وجوابا على سؤال القاضي . « هل تعرف المتهمة ؟ » أجاب : « آه ، اجل ، فقد كانت من خيرة زبائني ! »

وفي السنة نفسها جرت وقائع محاكمة ديهاي ، « السجين البريء » . فقد طلب محامو الدفاع عنه ان تدلي زوجته بشهادتها . وقال احدهم لهيئة المحكمة :

ـ ان هذه المرأة ستوضح لكم ما قاسته خلال توقيف زوجها وقد حرمت من كل مورد رزق ، فاضطرت الى رهن منزلها ... أليس كذلك ، يا سيدتي ؟

ـ كان ينبغي أن افعل ذلك ، يا سيدي الاستاذ ، لتسديد أجور المحامين !..

وسنة ١٩٦٠ جرت محاكمة بعض الاشقياء الذين سلبوا بقوة السلاح ، تاجرا في شارع سانتيبيه بباريس . ومثل الضحية امام القاضي ، الذي قال له :

ـ ولكن عندما قيدك الاشقياء واوثقوك بربطات العنق التي سرقوها من مخزنك ، الم تقل لهم شيئا ؟

فأجابه التاجر الضحية :

ـ بلى ، يا سيدي الرئيس ، قلت لهم : « لا تفعلوا ذلك بهذه الربطات ، فهي من الحرير ... استعملوا تلك الربطات القطنية ! »

ومن اظرف الردود التي صدرت عن شهود ـ ضحايا ما قاله احدهم للقاضي عندما استغرب هذا عدم اتيانه بأي حركة اذ ابصر لصا في غرفته ، وسط الليل :

ـ سيدي الرئيس لقد دهشت حقا ، وتساءلت كيف تسنى له ان يفتح الباب دون ان يوقظ زوجتي !

في كل قضية يستدعى الخبراء على انهم الشهود الرئيسيون . وهناك خبراء في شؤون التسمم .. ومنهم الخبير الشهير اورفيلا الذي كان هدفا لسخرية لاذعة في قضية مدام لافارج الملقبة بأنها اشهر من دس السم في الدسم في القرن التاسع عشر (١٨٤٠) .

فقد لجأ الدفاع الى خبير آخر لهدم كل نظرياته ، يدعى راسباي (وقد اطلق اسمه فيما بعد على احد بولفارات باريس) . وقد تمكن من منافسه الرسمي اذ قال :

ـ يدعي السيد اورفيلا انه وجد زرنيخا في جسم الضحية . طبعا ، فهناك زرنيخ في كل مكان . حتى في كرسيك ، يا سيدي الرئيس . واذا وافق السيد اورفيلا على التعرض للسلق ، فانني واجد حتما كمية من الزرنيخ في احشائه .

المتهمون والدعابة

لا يحتكر القضاة ، ولا المحامون ، ولا حتى الشهود حق التنكيت في قاعات المحكمة . فهناك بعض المتهمين ينافسونهم منافسة شديدة حقا . فهم يتمتعون بالذكاء ، وخفة الروح ، والشجاعة ـ لكي لا نقول بروح المغامرة الخطرة ـ لأنهم ، عادة ، يدفعون غاليا ثمن نكاتهم هذه وقت اصدار الحكم (الحديث طبعا يصدق في الواقع في القضايا الجنائية التي تكلفهم اما المقصلة ، او السجن

المؤبد ... اما في القضايا الاخرى ففي الوسع التنكيت لقاء ثمن معقول نوعا !..) وهذه نكات ملتقطة من القضايا الجنائية ...

عندما كانت المحكمة تنظر في قضية جورج كادودال الذي اتهم سنة ١٨٠٤ بالتآمر على نابوليون ، قال رئيس المحكمة انه اثناء القبض عليه قتل شرطيا هو رب اسرة . فما كان من المتهم الا ان قال :

— في المستقبل اجعلوا شرطيا اعذب يتولى امر القبض علي .

قال الجنرال ماليه زعيم مؤامرة اخرى ضد امبراطور الفرنسيين (سنة ١٨١٢) للقاضي الذي سأله عن شركائه في الجريمة :

— فرنسا بأسرها . وانت ، يا سيدي الرئيس ، فيما لو نجحت مؤامرتي !

غداة ثورة ١٨٣٠ كان بين الزعماء الثوار الكيميائي راسباي الذي مثل امام محكمة جنايات السين . فأمره الرئيس بالوقوف قائلا : انهض ، يا راسباي !

فلم يتحرك المتهم ، فكرر القاضي قوله : راسباي ، طلبت اليك ان تنهض !

فقال راسباي : سيدي الرئيس ما اعتقدت انك تخاطبني . فعادة يخاطبونني بعبارة « يا سيد راسباي » ، فنحن الاثنين ، على ما اعلم لم نسجن لويس — فيليب !

فتردد القاضي لحظة ثم قال :

— المحكمة لم تسمع عبارتك الاخيرة انهض ، يا سيد راسباي .

(ان اسم هذا القاضي ليستحق ان يعرفه الخلف . فهو الرئيس سانجياكومي) .

سنة ١٨٨٥ جرت محاكمة السفاح برادو ... وكان المحامي قد انهى دفاعه عنه وكان دفاعا هزيلا . فلما سأل رئيس المحكمة المتهم السؤال التقليدي :

— هل لديك شيء آخر تضيفه الى دفاعك ؟

اجاب برادو بكل برودة : اجل ، يا سيدي الرئيس ، ينبغي لي ان اقوم بالدفاع عن نفسي من جديد !

سنة ١٩١٣ ، وفي محكمة جنايات السين ، قال الرئيس لمزور النقد لويس كوزان :

— بوسعك ان تنكر التهمة ما طاب لك ، فلن يغير ذلك في الحكم عليك بالسجن مع الاشغال الشاقة . فقال المتهم : ان ذلك ليزعجني قليلا ، يا سيدي القاضي ، فانا لا اعرف احدا هناك .

تشرين الثاني سنة ١٩٢١ ... محاكمة السفاح لندرو (ذو اللحية الزرقاء) في فرساي . خلال المرافعات لم يتوقف المدعي العام عن القول متوجها للمتهم : « سأطالب برأسك ! » وفي النهاية ابتسم لندرو مرددا :

— انك تحدثني دائما عن راسي ، يا سيدي المدعي العام ولكني آسف حقا الا يكون عندي الا رأس واحدة لأقدمها اليك .

وجرت في هذه المحاكمة نادرة اخرى ، اذ قال له الرئيس :

— لقد عرفنا ان كل النساء اللواتي دخلن حياتك اختفين فجأة ، ترى ما راي اولادك بذلك ؟ انهم ولا ريب يطرحون عليك اسئلة كثيرة ؟

فأجاب لندرو بزهو وتعال :

— سيدي الرئيس انا اجهل ما اذا كان لك اولاد ، واجهل كيفية تنشئتك لهم . ولكن بالنسبة الي فالاولاد لا يطرحون علي اية اسئلة !

سنة ١٩٣٩ ، وفي محكمة فرساي كذلك ... سأل رئيس المحكمة المتهم وايدمان ، « وحش لافولزي » هل ارتكب حقا الجرائم الاربع المدان بها ، فأجابه :

— لقد ارتكبت أسوأ من ذلك .

— ما تقول ؟

— سمحت بالقاء القبض علي !

اما المتهم الذي يجلس في قفص الاتهام في محكمة الجنح ، فليس متهما كمتهم « الجنايات » ... وعندما يتحدث رئيس المحكمة عنه يقول : « هذا الشخص » او « هذا الرجل » ... وقد اتفق مرة أن قال متهم ردا على احد القضاة لأنه اعتبر ان كرامته مست بهذه العبارة :

— سيدي الرئيس ، أنا لست رجلا ، أنا مواطن مثلك تماما !..

وردود هؤلاء المتهمين غالبا ما تكون ارتجالية ، وغير متوقعة ، وهذه طائفة منها ... محاورات بين القضاة والمتهمين :

— أليس لك سوابق ؟

— لا ، ليس لي غير اخت واحدة !

— ولماذا سرقت هذه البذلة الجديدة ؟

— لكي اتمكن من التقدم بهيئة لائقة أمام عدالة بلادي !

— أتقر بانك مذنب ؟

— أجل ، يا سيدي الرئيس ، هيء لي محاكمة بسيطة كما لو كان الامر يتعلق بك .

— لماذا رفست حماتك في بطنها ؟

— لانها عادت ، يا سيدي الرئيس !

— لقد سبق أن حكم عليك في السابق خمس مرات !

— صحيح ، يا سيدي الرئيس ، وقد كان ذلك في الريف ...

— لقد فاجأتك دورية من رجال الشرطة في الساعة الثالثة صباحا امام الجمعية الوطنية ، وعلى ظهرك سلم من تلك السلالم التي يستخدمها عمال الطلاء . فلماذا كان على ظهرك سلم ؟

— سيدي الرئيس ، كان الجو باردا جدا !..

— كان يمكن ان تقتل خصمك ...

الميلاد

●

يبس النجيع على الجروح .. فمن سيغسل لي جروحي ..؟
من يفتح الشرفات في عيني ، كي افديه روحي ؟
من يصهر الصدىء المخيم فوق تبري ؟
فلقد فرشت على الازقة كل حبزي
وزرعت قرب حروفه ارق انتظاري
عل الرياح تمر تملأ حضن داري
وصرخت حتى بح صوتي .. مات صوتي
لا الريح تقتلع اصطباري ، لا .. ولا الصرخات ....
تشفي داء صمتي

رد انت وحدك توقد الذكرى تذوب لي عذابي
طف فوق ثغر كؤوسنا .. املا كؤوسي بالشراب
زح ايها الميلاد ... قد طال اغترابي
خب وسط داري ايها الميلاد كي اشكيك ما جي
الرمل يزحف .. مثل موتي ..
مثل صوتي ..
مثل موتي ..
هبني عطورك قبل ان يجتاح قبري
صوتي وحرفي وانتظاري
ودع الرياح تزود داري
فالليل يغرز في قفاري
ظلماته ... ويلف قلبي باكتئابي
ونبت شيبه في شبابي
وضباب هذا البعد يحجب وجه بابي
فمتى سترفع لي حجابي ؟
ومتى ستغسل لي جروحي ..؟

بغداد فيصل السعد

— ولكني لم أضربه الا بالماء !..
— ممكن ، ولكن لم يكن ينبغي أن تترك الابريق في مكان الحادث !
— يتضح من الملف أن الخمرة هي التي دفعتك الى اطلاق النار على زوجتك .
— لا ، يا سيدي الرئيس ، الخمرة هي التي جعلتني أخطئها !
— انت رب أسرة ؟
— لا ، عم أسرة فقط ... فلي ابن اخ !..

— لقد دخلت على حارسة البناية وبيدك قضيب حديدي !..
— لقد أردت ان اقدم اليها تمنياتي فحسب ، ولكني لم أجد زهورا !

اقتحمت السائقة الحسناء الطريق بالرغم من الاشارة الضوئية الحمراء ، وحطمت عمودا من اعمدة الكهرباء ، وقلبت عددا من المشاة ، وقالت للقاضي مبررة تصرفها الاهوج :
— ان الألفي فرنك التي أدفعها ضرائب كل عام تمنحني ، على الاقل ، بعض الحقوق !

قال السارق الذي عرفته الضحية :
— كذب وافتراء ، فأنا لم أضع قدمي في مسكن المدعي .. وعلى اي حال ، فقد كان مستحيلا أن يعرفني ، ذلك بأن راسه كان تحت الغطاء ، وقد سمعت اصطكاك اسنانه !

بعد اصدار الحكم ، سأل القاضي المتهم :
— أراض انت ؟
— هذه محكمة رائعة ... سأعود اليها !..

كان المتهم بعيد النظر ، فبعد أن صدر الحكم بسجنه سنتين ، قال للمحامي :
— لا تنسى ، يا سيدي ، ان تخبر زوجتي بأنني لن أعود الى المنزل قبل سنة ١٩٦٧ .

وهذا متهم حذر :
— لقد حكمت عليك المحكمة بغرامة قدرها مئتا فرنك لاهانتك أحد رجال الامن . فهل لديك ما تضيفه ؟
— أجل ، يا سيدي الرئيس ، ولكن بهذه التعرفة ، لا اجرؤ على قول شيء !

لعل أفضل نادرة في هذا الباب هي نادرة « المشعوذ — الفلكي » المتهم بعدد من أعمال النصب والاحتيال ، الذي قال له القاضي :
— أنت يا من تدعي معرفة الغيب والمجهول ، أتدري اي عقوبة ستصدرها المحكمة بحقك ؟!
— طبعا ، يا سيدي الرئيس ... ستكون البراءة !
— ولكن ، أرجوك ، لماذا تعتقد ذلك ؟
— لانه ليس هناك اي قاض في العالم قادر على الهزء بالرجل الذي سيصدر حكما بحقه !

وهناك اخيرا الاقوال التي يهمس بها المتهمون في آذان وكلاء الدفاع عنهم . فقد قال المحامي الشهير موريس غارسون مرة لأحد الذين يدافع عنهم :
— لقد طلبت أن تكون زوجتك شاهدة ، وانا واثق تماما من براءتك اذا نجحت في البكاء امام المحكمة !..
فقال له المتهم :
— اذا شئت أن تبكي زوجتي ، يا استاذ ، فقل لها انني سأبرأ !..

سمير شيخاني



يوسف عبد المسيح ثروة

الانسان بين الطبيعة والاسطورة

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

جون ملنكتن سنج (١٨٧١ – ١٩٠٩) كاتب أيرلندي اسهم اسهاما جليلا في رفد مسرح « الابي » المعروف في دبلن بالتعاون مع ييتس والليدي غريغوري والاخوين فاي ، وذلك في مستهل هذا القرن . وقد اكتشفه الكاتب المسرحي الكبير ييتس بباريس اثر أوبته من المانيا ، خائب الظن ، خالي الوفاض ، جريح النفس ، مثقلا بالهموم والغموم ، تملأ جوانحه دوامة من القلق والفزع والجزع وسوء الظن في نفسه ، وفيما حوله من بشر . ذلك انه – وهو الموسيقي الشاب الطموح المواكب للكواكب في افلاكها ، وجد نفسه بغتة وقد هبط الى الارض مرغما مقهورا مهزوما مبهورا لخيبته في اللحاق بكواكب الموسيقى الالمانية . ومع أنه هبط الى الارض في باريس ، عاصمة العقل والجمال والفكر والفن ، فانه لم يجد عندها غير الفاقة والحرمان والعوز ، فاكتوى بالسنة اللهيب هذه حتى كاد يضمحل ويفنى لولا اتصاله بييتس الذي فتح له مجال الحياة من جديد في جزر آران بارلندة ، اذ اشار عليه بالاختلاط بشعب تلك الجزر كي يستقطر منه روح الشعب الارلندي بشاعريته الساذجة اللطيفة ، وكرمه النفسي الجذاب ، وطبيعته المرحة اللامبالية ، وفولكلوره الاسطوري الجميل . ولما كان سنج شاعرا بفطرته فضلا عن الموسيقى التي اكتسبها بدراسته ، ولما كان مولعا بالطبيعة العارية من زخرف الانسان وجد اغراء ييتس تجاوبا في نفسه . فعاد الى وطنه والى جزر آران بالذات سنة ١٨٩٨ ، ومنذ تلك السنة حتى وفاته المبكرة ظل متنقلا كالطائر بين آران ودبلن . وهناك في موطنه كتب مسرحياته « ظل الوادي » و « الراكبون الى البحر » و « بئر القديسين » و « فتى العالم الغربي المدلل » و « زفاف السمكري » و « ديدري فتاة الاحزان » .

يذهب النقاد – في تقييم هذه المسرحيات – مذهبا يكاد يكون منسجما ، اذ هم يعدون « فتى العالم الغربي المدلل » و « الراكبون الى البحر » احسن مسرحياته . والاولى ملهاة في ثلاثة فصول والثانية مأساة في فصل واحد . وقد بلغ تثمين بريستلي للمسرحية الاولى الى حد القول : ان « فتى العالم الغربي المدلل » هي من احسن الكوميديات التي ظهرت في القرن العشرين (١) ، والملهاة هذه تتناول النفسية الارلندية تناولا فيه الكثير الكثير من الصراحة ، في عرضها لها في ريائها الديني وتبعيتها الذليلة للكهنوت ، وفي تمردها البطولي وثورتها الجارفة لكل التقاليد والاعراف ، في تسترها على القبائح والفضائح ، في تساميها على الصغائر والتوافه ، في تأرجح الجمهور الارلندي بين النقيضين تأرجحا يذكرنا بجمهور روما بين خطابي بروتس وكاسيوس قبل مقتل قيصر وبعده . وطبيعي ان تكون لهذه الصراحة عواقبها وردودها في المشاهدين الارلنديين عند تقديم المسرحية على مسرح « الابي » فاستدعيت الشرطة اكثر من مرة لتهدئة خواطر المشاهدين المهتاجين ، الذين عدوا المسرحية لطخة عار لوثت اسم ارلنده الجميل . الا أن هذا الامر لم يقعد بالكاتب عن المضي عما كان ماضيا فيه ، ولا نال من همته القعساء قلامة ظفر ، لان اصالته الفنية وخياله الرفيع المفعم بالشعر الحي الصادق وواقع الحياة نفسها ، تضافرت جميعا على حبك خيوط مسرحياته فجاءت نسيجا فريدا نابضا بالحيوية والصدق والامانة والروعة جميعا . وكيف لا تكون الحال كذلك ولغته نفسها هي لغة البسطاء من الناس . وفي هذا الشأن يقول سنج وكله اعتزاز وفخر :

« حين كنت اكتب « ظل الوادي » منذ عدة سنين استطعت ان احظى بما لم احظ به من اي معرفة مهما تكن ، كنت اسكن في دار في وكلاو ، قديمة العهد ، تسمح فجوة في ارضية الغرفة التي اسكنها من ان استمع الى ما كان يدور من احاديث بين خادمات المطبخ . وهذا امر على جانب عظيم من الاهمية ، على ما احسب ، ذلك ان في قدرة الكاتب ان يكون غنيا كل الغنى في كلماته ، في بلد يكون فيه خيال الشعب خصيبا ولغته التي يستعملها غنية وحية . وفي الوقت نفسه ، فان ذلك ييسر له ان يضفي على الواقع – الذي هو احساس كل شعر – شكلا طبيعيا شاملا (٢) » .

وعلى ذلك فان سنج أقتصر على لغة الشعب فيما كتب ، ذلك منه استجابة طبيعية وصلة واقعية وتكملة حية لوجود الكاتب المسرحي الشاعر ، من غير اسفاف وانحطاط وتميع . ومصداق ذلك ان الفظاظة الحوشية لم تعرف ولم تستطع ان تعرف لها سبيلا الى كتاباته ، على الرغم من اختلاطه اللصيق بكل مراتب الناس ومرافق الحياة وسبلها المتعددة .

ومع ذلك فان بساطة الاسلوب وصدق التعبير عن الشخوص في الاداء المسرحي وفي المواقف الاساسية حملتا الكثيرين من النقاد على الانتقاص من شاعرية سنج بصفتها شاعرية سطحية لا تغور الى الاعماق كما هي الحال مع شكسبير. وهذا هو راي الناقد بيكوك في كتابه «الشاعر المسرحي»: «انها شاعرية في حدود معينة. انها ترتبط ارتباطا وثيقا بالفن الشعبي، ولهذا الارتباط مساوئه. ان الخيال الشعبي تلقائي وجميل الى حد ما، ولكنه لا ينقلنا الى اغوار بعيدة، إذ ان البساطة والصدق لا يكفينا للتعبير عن الفن الناضج، وهنا يكمن قصور اللغة التي اختارها سنج وسيلة للتعبير» (٣). اما سنج فانه يرى في اللغة الشعبية خيالا ناريا عظيما ولطيفاً، انه يجد فيه الواقع حين ينبغي ان يتجسد على المسرح، ويجد فيه المتعة ومن الجمع بين الواقع والمتعة ينبعث فن درامي عنيف فيه جلال وروعة.

وحين يؤاخذ سنج على عرضه العاري لرذائل الفلاحين الايرلنديين في مسرحيته «فتى العالم الغربي المدلل» يرد على هذه المؤاخذة بقوله: «ان تلك الوحشية، واذا شئت رذائل الفلاحين الايرلنديين، شأنها شأن كل الاشياء المهمة، لا تعود الى مصدر غير غنى طبيعتهم، وهو امر لا يثمن لان الكلمات تعجز عن ذلك.» وإذن فسواء اعرضت الرذيلة ام الفضيلة فالمسألة لا تخرج عن كونها اداء مسرحيا ليس الا مرآة تنعكس عليها الاضواء والظلال على حد سواء. ومن هنا، فان الهدف ينتفي في مسرح سنج ويحل معه العرض الجيد للحياة، من غير التفات حتى الى الضرب الكوميدي منه او التراجيدي وهذا ما اشار اليه سانج نفسه في رسالته التي بعثها الى احد الشبان سنة ١٩٠٧.

ومن هنا فان سنج لا يعنى بالمضمون المسرحي قدر عنايته بالشكل، وهو في هذا ايضا لا يهتم بجزالة الاسلوب او فخامة المدلولات الادبية، وانما الذي يعنى به كل العناية هو الشعر الشعبي المتناثر في اللهجة الدارجة، ظنا منه ان الشعر الحي النابض بالرعشة الشعورية المفعم بمكنونات النفس، المنسجم مع الطبيعة ومع الاساطير الشعبية، هذا الشعر هو قوة الحياة، في استمرارها وغناها ووفرتها وجلالها في طريقها الى الذروة وفي هبوطها الى الحضيض.

والطبيعة في مسرح سنج واضحة قوية الاثر والمعالم ولا سيما في «الراكبون الى البحر» و «ديدري فتاة الاحزان» و «زفاف السمكري» وهي تشكل الجو الشفاف الذي يتراوح بين المأساة والمهزلة في «فتى العالم الغربي المدلل». فالبحر، وهو تلك القوة الجبارة الجذابة، والهيدرا الهائلة والقدر المحتم، لا يرحم موريا الام، بل هو يجتذب بقوته السحرية ابناءها الستة الواحد تلو الاخر من ستيفان الكبير الى بارتلي الصغير، هؤلاء الذين اتت بهم الى الدنيا ليكونوا ازاهير تنفح العطر في حياتها الداكنة، لكنهم ذهبوا وتركوها تندب حظها العاثر بين ابنتيها وبين جحيم فقدانها الذي كتب عليها. وعندما يكون البحر قد تسلم منها حصته كاملة غير منقوصة تنهض من مجلسها وتزمجر قائلة: «ها هم قد ذهبوا الان، ولم يبق للبحر ما يفعله معي بعد... انني لن اصرخ واصلي اذا ما هبت الريح من الجنوب، واذا ما تلاطمت الامواج في الشرق او في الغرب في صخب شديد.» ذلك انها خسرت المعركة وانتصر البحر عليها انتصاره الفاجر الغادر اللئيم، وانكفأت الام على نفسها بعد ان جف معين صراخها وصلواتها في وقت واحد، لان عقارب اليأس تمكنت من نهش قلبها حتى لم يبق منه وتر حي او نقطة من دم قان. أما ابنها بارتلي الظالم الذي لم يوفر عليها حياته، بعد ان توقعت الشر الداهم بقولها: «اليس من الظلم والاعتساف الا يستمع هذا الانسان كلمة من عجوز وهي تحول بينه وبين البحر؟» فهو يصر على الذهاب ويقول: «ينبغي أن أذهب الآن سريعا» وهنا تنفجر باكية وتقول: «لقد ذهب الآن، حفظنا الله، ولن نراه مرة اخرى. لقد ذهب الآن، وحين ينسدل الليل البهيم لن يترك لي ولد في هذه الدنيا.» لقد عرف البحر كيف يعذب الام عذاب الهوان، وكيف يجعلها ترد قول القس الذي قال ان الله العظيم لن يتركها وحيدة، بعد ان فقدت من فقدت وبخاصة ابنها مايكل الذي لم يمض على فقدانه احد عشر يوما، لذا نراها تتوجه الى ابنتها نورا قائلة: «ان امثاله (تعني العشر) لا يعرفون ألا الشيء القليل عن البحر... سيضيع بارتلي... فلتصنعوا لي تابوتا من الخشب لاني لن اعيش بعدهم.»

واثر الاتيان بجثة بارتلي الهامدة ترش الام موريا الماء المقدس على قدميه الملفوفتين بثياب أخيه مايكل الفقيد السابق وتقول: «لقد صليت من اجلك يا بارتلي الى الله القدير. واقمت الصلوات في الليل البهيم، حتى اجتلط عليك ما كنت اقول. ولكني بالتوكيد سأحظى الان براحة عظيمة. راحة عظيمة في الليالي الطويلة ونوم عميق.»

وللطبيعة كذلك وجود لا ينفصم عن حياة شخوص «ديدري فتاة الاحزان» فان الوديان والاشجار والغابات وانواع الاثمار والازهار والامواه تتشابك مع الشخوص والاسطورة تشابكا متينا يجعلها وحدة شعرية في سمفونية الحياة الطبيعية والاسطورية والاجتماعية في الوقت ذاته. وهنا تبرز قدرة سنج المسرحية في اضفاء المعالم الانسانية على الطبيعة وعلى الاسطورة والمشاهد الحية بصورة متناسقة منسجمة يسري في عروقها جميعا نسغ من الشاعرية السحرية والحوار اللافح المركز والاداء الطبيعي البسيط الجميل. فحين يحاول كونشبور الملك ان يعزز لافرتشام لانها لا تبذل جهدا يذكر لتدريب ديدري على «مجابهة

---

(١) بريستلي: (الادب والانسان الغربي). (٢) مقدمة (فتى العالم الغربي المدلل). (٣) د. عبد الله ع. متولي في مقدمته لـ «ديدري فتاة الاحزان» ترجمة علي جمال الدين عزت. (٤) اعتمدنا في شواهد «ديدري فتاة الاحزان» على ترجمة الاستاذ علي جمال الدين عزت. (٥) هو شفيع ايرلندا في التقاليد الكاثوليكية الرعية.

حياتها المقبلة » تتصدى لافرتشام له بعزم وقوة وتذكره بخدمتها الطويلة وتقول : « انها ليست بحاجة الى ان تأبه بامراة عجوز على حين ان لديها الطيور تلقنها ولديها الغدران تسبح فيها تحت وهج الشمس (٤) »

اما نايزي الذي احبته ديدري وتعلقت به من اول نظرة فقد دهش اشد الدهش عند التقائه بها بعد ان هام هو واخواه بحثا عن ملاذ يتقون به هجمات الطبيعة الغضوب ، دهش الى حد انه قال : «اهو انت التي تجوبين الاحراش وتجعلين طيور السمان من اجل حلاوة صوتك وانت تصدحين بالغناء ؟ »

وبينما العشيقان يتبادلان اللقيا ولواعج الشباب واسباب الوصال وكيف السبيل اليه ، نسمع ديدري تبث لحبيبها آهاتها وآمالها وامانيها وتقول وكلها حرقة : « اولا نحسن صنعا ، يا نايزي اذا ما دفعنا الثمن بالصمت والموت الوشيك لقد مضى علي وقت طويل وأنا في الاحراش اهيم بمفردي، لا اخشى الموت ما دمت اربح مقابله كنوزا خليقة بان تجعل الشمس تحمر من فرط الحقد (الحسد) وهي تمتطي عنان السماء وتجعل القمر شاحبا يشعر بالوحشة وهو يذوب اسى وضنى . » ومما يزيد الصلة بين الطبيعة والانسان اشتباكا هو عقد القران الذي نظمه اينل شقيق نايزي وفيه صلاة تلتمع فيها ايماضات الروح الطبيعية الكونية بشكل جذاب فقد جاء فيها : « باسم الشمس والقمر والارض كلها ، ازف ديدري الى نايـزي ... فليبار كما الهواء ، والماء ، والرياح ، والبحار ، وكل ابراج الشمس والقمر . » وبهذا الشكل الفريد من الصلاة ، انتزعت ديدري من براثن الملك كونشبور ، واصبحت بحكم العقد المبرم زوجة شرعية لنايزي ، لا يفرقها شيء سوى الموت عن بعلها ... وبذلك تم للاسطورة مرادها ، وتمت المأساة بابعادها وآمادها ، وحققت كلمة النبوة ، فالدمار آت حتما على (الستر) اذ لا راد ليد القدر .

لقد استطاع الملك بواسطة عميله فيرجس من ان يقنع ديدري ونايزي واخويه ليعودا جميعا الى «ايمين» حيث عرشه وابهته وسلطانه وقوته وجبروته ، وهناك قضت يد الخيانة على نايزي واخويه وثارت من ديدري ثأرا جعل الدم يجمد في عروقها ، جعلها تقف على القبر الذي ووري فيه نايزي واخواه وتقول والحسرة تقطع انياط قلبها وتمزق احشاءها وتدف السم الى انفاسها . «لن يرى ثلاثتكم بعد الآن شبح العمر وهو يتقدم ، او الموت وهو يزحف ، انتم الذين كنتم خير رفاق لي حين كانت النيران تخبو فوق قمم التلال فلا نسير الا في رفقة النجوم . » ثم انها تخص بالذكر حبيبها نايزي في رثائها المر ذي الشجى والشجن فتقول : « لقد كان نصيبك موتا نظيفا ، يا نايزي ، ولست انا التي اتخلى عن راسك يا نايزي ، وقد كنا نقضي الليالي الطوال نشاهد النجوم من خلال الاشجار اليانعة في وادي رواده ، او نشاهد القمر يستقر على سفوح التلال لكي يستريح من عناء المطاف . »

ولما كانت ايمين موضع نقمة القدر فان النيران زحفت عليها واتت على ما فيها من اخضر ويابس وجعلتها كعصف مأكول تذروه الرياح النارية شذر مذر حتى لم يبق اثر من آثار الانسان أو الحيوان فيها حتى ان ديدري لم تر مناصا من ان تقول وقلبها ليس الا بضعة من حطام : « اني ارى السنة اللهيب في أيمين ستندلع وسط الليـل البهيم ، ولسوف يكون هناك بسببي قطط برية وبنات عرس تصيح فوق اطلال كانت مأوى للملكات وجيوش ومخزنا لكنوز من الذهب الاحمر ، ومن ثم ستروي الاجيال قصة مدينـة حل بها الدمار وملك اصابه الهذيان وامراة سوف تظل في ربيع العمر الى ابد الآبدين . » هذه كلمات القدر تتوهج غضبا ، هذه حكم الدهر تنثر المواعظ على الساهين الفاطين في النوم من ملوك وحكام وسلاطين عابثين في اقدار الناس جالبين على انفسهم وانفس ضحاياهم نقم الآلهة الغضبى وعواقب افاعيلهم المفعمة بالغدر والخيانة والعار . لكن هذه الكلمات التي تنطق بها ديدري تتحول الى نجوى تسطع بالرقة واللطف والمشاعر الوجدانية الجياشة عند ما توجهها ديدري الى القمر وما تقوله شهد قلما يتيسر مثله لبشر : ايها القمر الصغير ، يا قمر البان الصغير ، لسوف تشعـر بالوحشة الليلة ، والليلة القادمة ، والليالي الطوال من بعدها وانت تغذ السير في الغاب خلف وادي لاؤوى تفتش في كل مكان عن ديدري ونايزي . »

وعندما يحين الاوان تبرز ديدري مدية نايزي ، وتتصدى لكونشبور (الذي يحاول ان يفعل شيئا ليحول بينها وبين ما تريد) . تقول له وقد دقت الساعة وازف الفراق : « لدي مفتاح صغير افتح به سجن نايزي الذي اوصدتموه على شبابه الى الابد . ارتد الى الوراء يا كونشبور ، فان الملك الاعظم الذي يسلط سيفه على رقبتك قد وضع يديه حائلا بيني وبينك ... » اجل ان مفتاح السجن كان بيدها، اذ ما ان طعنت قلبها طعنة واحدة حتى انفتح الباب على مصراعيه ودخلت ديدري السجن لتنضم الى رفاقها السباقين الى المحامد والمناقب والمروءة والشهامة ، دخلت السجن مرفوعة الجبين ، ساطعة المحيا ، امينة على شرفها، متحدية الحكام جميعا ، فخورة بما آتت وبما اتى به رفاقها الذين واجهوا الموت ببسالة منقطعة النظير ، وكل ذلك حق ، ولافرتشام خير شاهد على ذلك إذ تقول بجوار القبر رثائية: « ماتت ديدري ومات نايزي . ولو كان في مقدور الاشجار والنجوم أن تموت من الاسى ، لخلفت لنا الليلة سماء معتمة، وارضا جرداء يابسة في أيمين . »

اما كرستي ماهون بطل « فتى الغرب المدلل » فهو ابن الطبيعة في صراحته التي تسلب الالباب وفي شجاعته التي تأخذ بنواصي الرجال والنساء على حد سواء ولا سيمـا الآنسة بيغين مايك ابنة صاحب الحانة ومأتى شجاعته انه

ضرب والده بفأس شدخت رأسه شدخا عميقا فاغمي عليه فظن الولد ان اباه قد فارق الحياة على اثر الضربة ، وخوفا من رجال القانون وعقوبته فر من مزرعة ابيه والتجأ الى حانة مايكل والد بيغين التي كانت على وشك الاقتران بقريبها شون كيوغ بانتظار رخصة الاب رايلي قس المنطقة. وقبل لجوئه الى تلك الحانة ظلت الوساوس تطارده احد عشر يوما وظلت وعثاء الطريق تنهش قدميه حتى كادالتعب يقضي عليه .

الوقت مساء والحانة قليلة الرواد وصاحبها على موعد في قرية اخرى لحضور مأتم احد الاقارب ، وشوت لا يريد البقاء مع بيغين خوف نزغات الشيطان وتحذيرات الاب رايلي ، والقادم الجديد انسان مجرم ومجرم من نوع خاص اذ انه قاتل ابيه الذي اتى به الى الوجود فكان جزاؤه الابعاد من هذا الوجود ببلطة كافرة نزلت على يافوخه كالصاعقة. الفتاة تستمع الى اعترافات كرستي امام والدها فتجد فيها سحرا وجاذبية وحشية ورجولة تأسر لبها وتخلب قلبها ، حتى انها تقع اسيرة بين قدمي الطارق الجديد ولما تمضي عليه ساعة وبعض الساعة . والان ومع بيغين فتى يمكنه الدفاع عنها ، يصر شون على البقاء معها ، لكن بيغين ترفض ذلك رفضا قاطعا وتدفعه الى الباب وهو متشبث بها ، لا يرغب في مفارقة الحانة ثم يضطر الى ذلك اضطرارا بعد ان يعجز عن مقاومة بيغين العنيفة فتخلو الحانة لها وللطارق الجديد . وهنا تسأله عن حاله فيقول باستيحاء وقد خلع جزمته : « حقا ، انني متعب وقد مشيت هذه الايام الاحد عشر ، الايام الوحشية والخوف ينالمني ما ينال كلما تيقظت في الليل . » وعلى اثر نظرة الى قدميه الصغيرتين قالت بيغين : « لا بد ان تكون اسرتك اسرةعظيمة ولك هاتان القدمان الدقيقتان ... » فيجيبها (فخورا) : حقا كنا عظماء باراضينا الواسعة في منستر . » ثم يمضي الحوار اللطيف بينهما في لغة شفافة من الصراحةوالبساطة واللطف ، ويمضي الليل عطرا رخيا متكاسلا وكل منهما يريده ان يكون اكثر تكاسلا حتى يستمتعا به خير ما يكون الاستمتاع . وبغتة يطرق الباب طرقة تهز جوانح كرستي وتهبط به من عالم الخيال والحب والاحلام الى واقع الرعب والرهبة والخوف . فما يكون منه الا ان يلتصق ببيغين قائلا: « اواه ، يا لله ، الوقت متأخر ، هذا ليس وقت قرع الباب، وانا الان خائف من الشرطة والموتى الماشين . » ثم يظهر ان الطارق ليس سوى الارملة كوين وهي لا تريد الا ان تتحقق من الزائر الجديد ومن مدى تأثره بالشراب الذي تناوله ، وهي لم تفعل ذلك الا لان الاب رايلي وشانين كيوغ الواقفين في الطريق ازاء الحانة هما اللذان طلبا منها ذلك وهنا تحتدم بيغين غضبا وغيضا وتريها كرستي متمددا على كيس من القش بين نعاس يجذبه اليه وبين كوز من الحليب ينتظر شاربه . وحين تحققت الارملة من حال كرستي الصاحية الحت بان يرافقها الى بيتها بحجة الخوف والوحدة

وكان كرستي أن يفعل ذلك لولا تدخل بيغين واصرارهاعلى ان يبقى معها . وعندما شعر بدفء اللحاف الذي وضعته بيغين على جسمه المنهوك تمطى ارتياحا ورضاء وقال : «عسى الله ومريم والقديس باتريك ينعمون عليك ويجازونك خيرا . » (وبعد خروجها من الغرفة، نراه لا يتمالك من القول: « انه فراش ناعم نظيف . لقد حظيت بعشرة وتوفيق عظيمين ، في نهاية الامر ، امرأتان لطيفتان تتخاصمان من اجلي ... الم اكن احمق ، اذ انني لم اقتل ابي من عدة سنين . »

اما الارملة كوين التي لم تحقق بغيتها في الاستيلاء على كرستي ، فانها استدرجت البنات الى الحانة للتعرف على الطارق الجديد ، وبعد اخذ ورد بين كرستي وبين البنات رأى ان سره قد افتضح ولهذا انتفض من الالم وقال : ما الذي يسرهم اذا هم جلبوا المشنقة لامثالي ؟ » ومما زاد الطين بلة ان بيغين نفسها انضمت الى البنات في مكايدته واللعب على هواجسه ومخاوفه بعد خروجهن من الحانة ، فاسقط في يدي كرستي ورأى الا مفر له من مغادرة المكان والنجاة بجلده من الكارثة المتوقعة ، غير ان بيغين ما لبثت ان اعلنت حقيقة نواياها في الاستبقاء عليه بصفته خادما للحانة الامر الذي اثار شجاه ولوعته وذكرياته التي تحرق الصخور الصلدة فقال : « انك لا تجهلين ما تعنيه الوحشة حين يمرق الانسان بين القصبات والاضواء تتلامع على جوانب الطريق اثر هبوط الليل ، وحين يسير في الاماكن الغريبة والكلاب تنبح امامه وتنبح خلفه، او ان يكون مضطرا للاحتماء بالمدن الكبيرة حيث يسمع وشوشات القبلات ومغازلات الغرام العميق ، في ظل كل حفرة ، وهو في طريقه ، بمعدته الخاوية الهاوية من جوفه . »

وما ان يأتي اول نهار على الالتقاء بين كرستي وبيغين حتى تكون العلاقات قد توطدت بينهما توطدا يوشك ان يطيح بآمال شون كيوغ في الاقتران ببيغين الى حد ان كيوغ يجد نفسه ملزما بالتضرع الى كرستي وقلبه معتصر يكاد ينفجر فيقول له متخضعا : « انها لا تناسبك ، ومزاجها هو مزاج الشيطان نفسه ، لانكما في ايام قليلة ستتخانقان حتما . انها مناسبة لامثالي من الناس البسطاء الهادئين »

وفي ضحى ذلك اليوم تتعالى اصوات من هنا وهناك ، فاليوم يوم المسابقات والمبارزات والالعاب ، وكرستي يفوز بكل الجوائز والجمهور الملتهب حماسة يصفق له ويرقص وينشد ، وبغتة يظهر ماهو عند باب الحانة ، معصوب الرأس ، فتواجهه الارملة بما يبدد شكه ويحول بينه وبين ابنه . وعلى حين غرة تلتقي بيغين بكرستي فتبوح له بهواها المدنف وتقول له : ولكن حبك لي سيكون كحب الصيادين حين يطاردون النساء الفرام عندما يهبط الليل في اطراف نيفين . » فيجيبها : « انك ستكونين قليلة الحظ من الفكر ان قارنت حبي بحب صياد او حتى بحب (ايرل)

المائدة

يصور الشاعر في هذه القصيدة ابوة الشاعر الروحية للناس وانكارهم اياه واعراضهم عن عطائه الثر .

في فرحة الدنيا وفيض عطائها ... وجمال طلعة وجهها السام
ابصرت أبنائي جياعا فاكتوت ... روحي بجمر لاهب وضرام
فرحلت عنهم جازعا متألما ... لاصيب ما يحييهم بسلام
فضربت في الآفاق ابحث جاهدا ... واروم من دنياي كل مرام
اطوي البسيطة سهلها وجبالها ... واطوف بين حوالق وحوامي
واغوص في لجج البحار مغامرا ... واسير في الفلوات والآجام
فاخذت من قمم الجبال اباءها ... ومن الكهوف بدائع الاوهام
ومن البراكين الظماء الى السنا ... زفرات اشواق ونار غرام
ومن العيون الجاريات صفاءها ... ومن البلابل اعذب الانغام
ومن الحمام وداعة وسكينة ... ومن السباع شجاعة الضرغام
ومن النجوم الطالعات ضياءها ... ومن الورود براءة الاكمام
ومن العذارى الساحرات فتونها ... ومن العيون عرائس الانهام
وصعدت في الفلك البعيد محلقا ... فشهدت فيه عجائب الاجرام
ورأيت سكان الكواكب قد غنوا ... فيها بعيش ناعم ووئام
فاخذت سر صفائهم وهنائهم ... وطرائف الاهواء والاحلام
ورجعت من سفري البعيد مثقلا ... بغنائمي وحوادث الايام
فحلمت بالقبلات اطبعها على ... وجنات ابنائي وحر سلامي
ودموع افراحي وطيب لقائهم ... وكلامهم عما مضى وكلامي
فسمعتهم يتساءلون وقد بدا ... شيبي وغابت شرتي وعرامي
من ذا الغريب وما يريد بارضنا ... ليست منازلنا له بمقام
انا ذلك الوله المحب ابوكم ... أفتنكرون ابوتي وذمامي
ما جئت اسالكم ولكن جئتكم ... بدمي وكل صبابتي وهيامي
وبزادي الموفور ابسطه لكم ... فرحا واسقيكم عليه مدامي
ومددت مائدتي لهم فتضاحكوا ... مني وعافوا خمرتي وطعامي
فاخذت اطراف اليفاع مضرما ... نار القرى في ليلي ، المترامي
متطلعا في وحدتي مترقبا ... عبر الظلام قوافل الاعوام

حلب — عمر ابو قوس

عندما ستحسين بيدي تحتضنانك وانا اعتصر شفتيك البارزتين بقبلاتي » .

ها نحن سائرون نحو الذروة من المسرحية وقد نكون وصلنا اليها ، وها ان ماهون يظهر مرة اخرى ، وتعلم بيفين بجلية الخبر : ان الاب لم يمت بضربة كرستي ، وان كرستي لم يكن بطلا قاتلا ، ولهذا السبب بالذات انقلبت بيفين عليه، بعد خيبة ظنها فيه، وبعد ان سطا اليأس على قلبها، اذ زالت من عينيها غشاوة البطولة والمجد والوحشية، وهذا ما انتهى اليه ايضا جمهور المصفقين لبطولة « فتى العالم الغربي المدلل».

وهنا تعالت الصيحات من جديد لا تمجيدا لكرستي واشادة به بل تلويحا بالويل والثبور لمن ادعى البطولة وهو منها براء . وبعد مناوشة بين الاب والابن ، اخذ ماهون ابنه كرستي ومضى به ، وباءت بيفين بخسران مبين ، اذ انها ولا شك اصبحت لقمة سائغة لشون كيوغ التافه المسكين، ولذا نراها تلكمه لكمة شديدة في صدغه وتقول واليأس ينضح من كلامها : « آه ، واحزني ، لقد فقدته ، فقدت (فتى العالم الغربي المدلل) الوحيد . »

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة



تمثيلية

بقلم جرجي نقولا

عريس جديد في غرفته الخاصة يتلهى بالنظر الى خاتم العرس في اصبعه . يستدل من اثاث هذه الشقة على ان صاحبها صاحب علم وادب . يدخل زائر شاب يحمل هدية .

الزائر — (بشوق) هالو .. (يضع الهدية في مكان ويقترب منه) .

العريس — (دون ان يتحرك من مكانه او ينظر اليه الا نظرة عابرة) انت لم تزرني بعد . كنت اتوقع زيارتك .

تفضل اقعد . (يرفع راسه اليه) اعتقد انك جئت تستطلع لماذا تزوجت وكيف رضخت للواقع اخيرا . اليس كذلك ؟

الزائر — انا ... انا .. (متنقلا بنظره بين العريس والهدية) انا بالحقيقة مسرور جداً لذلك .

العريس — (يرى الهدية) ما هذا ؟ هدية ؟ متى كنا نتبع التقاليد التي يتبعها سوانا ؟ بل متى كان هناك حاجز يفصل احدنا عن الاخر ويمنعنا من ان نتصارح ؟

الزائر — لا لا ، لكن ...

العريس — لكن ماذا ؟ هل قلت لك انا اني احتاج الى هداياك ؟ واية هدية هي ، لماذا لم تسألني قبل ان تأتيني بها ؟

الزائر — يا اخي مهلا ورفقا بي ! تكاد تقنعني فعلا انك تغيرت ، لم تكن بهذه القساوة قبلا .

العريس — (يضحك كأنه يعتذر) حسنا حسنا . تكلم فانا مصغ اليك .

الزائر — اولا : انت تزوجت . والزواج هو من التقاليد التي يتبعها الناس .. او انه كان هكذا بالنسبة الينا اذا كنت لا تزال تذكر احاديثنا الماضية ؟

العريس — وكيف لا اذكر ؟ كمل .

الزائر — الزواج من التقاليد التي يتبعها الناس . وانت تزوجت ، اعني انك رضخت لتقليد ما . افليس من الصواب ان ارضخ انا ايضا لتقليد اخر تابع له ، وآتيك بهدية بمناسبة الزواج ؟

العريس — (يهز راسه غير موافق) لا لا ، ليس من الصواب ابدا . اتم حديثك اولا ، هل هناك ثانيا ؟

الزائر — ليس هناك ثانيا الا اذا وافقتني على اولا ، اولا .

العريس — لن اوافقك على اولا ، لا اولا ولا اخرا . من قال لك اني رضخت للتقاليد التي يرضخ لها البشر ؟ هل اتفقنا على ان تقاليد البشر ، او تقليدا واحدا منها على الاقل : الزواج .. هل اتفقنا على ان هذا التقليد لن يصبح من تقاليدنا ايضا ؟

الزائر — (يقلب شفتيه) لا اذكر اننا تحدثنا عن مثل هذا الامر من قبل . لكن ..

العريس — (يقاطعه) لنفرض اننا تحدثنا ، هل تعتقد كنا نختلف ؟

الزائر — لا ادري . المهم : هل اصبح الزواج من تقاليدك ؟ هل صرت تؤمن به كما يؤمن الناس ، ولهذا تزوجت ؟

العريس — كلا يا صاحبي كلا . هل قلت لك انا هذا ؟ اوه كم احتاج من تعب وجهد لاجد رجلا واحدا يفهمني على الاقل !..

الزائر — يا اخي ! (يصمت اذ يجد ان الصمت افضل) حسنا ، اشرح لي ولا تؤاخذني .

العريس — وماذا اشرح لك ؟ انت الوحيد الذي كنت اعتقد انه سيفهم دون ان اشرح له ، بناء على ما يعرفه عني ومني سابقا . المشكلة ان واحدا من كل المهنئين والاصحاب لم يطلب مني ان اشرح له ، لان الجميع يعرفون . ويؤلمني جدا يا صديقي ان اجد انك لا تعرف الا كما يعرفون هم ...

الزائر — انت لا زلت انت ، شديد القساوة الى حد لا يطاق .

العريس — هذا انا ، وذاك انت . نطقت بالصواب . (صمت) الان انس اني تزوجت ، وتعال رافقني خطوة خطوة لعلك تتزوج كما تزوجت انا ، او تقودك الظروف الى ما قادتني اليه ..

الزائر — الظروف ؟

العريس — طبعا الظروف . نحن نرضخ للظروف ولا نستطيع الا ان نرضخ لها .

الزائر — (يهز راسه حائرا) هذا ليس انت . كنت تقول ان الانسان يصنع ظروفه . يظهر انك تجاوزتني، وانت تكلمني من حيث اصبحت ، لا من حيث تركتني .

العريس — معك حق . فلنبدأ من الاول اذن. فلنبدأ من الاول. (يتمشى مفكرا ويصل الى الباب ، ثم يعود ويقف بجانب الهدية) فلنبدأ من هنا ، من الهدية . (يحملها ويتلمسها باصابعه) دعني احزر ما هي هديتك اولا . يقولون ان الهدايا على مقدار مهديها ، اما انا فاقول ان الهدية على مقدار قيمة المهدى اليه بنظر الهادي . دعني احزر ما هي قيمتي بنظرك اذن ، ومن هنا تعرف ما هي قيمتك بنظري ايضا . (يضع الهدية)

الزائر — (ساخرا) لا لا يا صاحبي! لا تتفلسف . انا لم اقيمك بهديتي ، بل قيمت التقليد الذي اتبعته فقط. صاحبي تزوج ، وهو يؤثث بيتا . فأهديته دزينة من فناجين القهوة . هذا كل ما في الامر .

العريس — (يتهالك على كرسي صارخا) دزينة من فناجين القهوة ؟ يا للمصيبة ! لا بد لي ان اصبح تاجرا بفناجين القهوة يوما ، هذا افضل حل .

الزائر — غضبت ؟ (يقترب منه) لا تغضب لا تغضب ، سابدلها لك .

العريس – لا ، لا لـــزوم لان تبدلها لي . لا استطيع ان اطلب من كل واحد ان يبدل لي هديته . اسمح لي فقط أن اسجل اسمك علـــى اللائحة التي اسجل عليها اسمـــاء الذين اهدوني فناجين قهوة لكـــي اهديك مثل هذه الهديـــة يوما . (يتناول قلما عن طاولة ويكتب علـى لائحة معلقة في الجدار ، لكن القلم لا يكتب . قبح الله هذا القلم ، يرفـض الكتابة . لم يخطر له ان يحرن الا الان . أم تعتقد ان الحبر خلص منه؟ (يتفحصه) لا ، لا يزال ملانا ، ولـم اكتب به بعد المقدار الذي اعتدت ان اكتبه بقلم مثله من الحبر الناشف .

الزائر – اسمح لي ان اراه ، لعلهم غشوك به . (يأخذه منه) هذا النوع من الاقلام يا صديقي لا يكتب الا اذا كان راسه الى تحت ، هكـــذا . لا يكتب على الجدار ، يجب ان تكتب به على الطاولة . هات اللائحة الى هنا لاكتب لك اسمي في المكان الذي تريد . (يتناول اللائحة ويبسطها على الطاولة ويكتب) أذكر انك كنت تكره كتابة اسمك بيدك ، الا تزال كذلك ؟

العريس – ما لـــك ولي الان . اكتب اسمك بخط واضـح مقرؤ ، وليس كالامضاء على كمبيالة .

الزائر – (يضغط كثيرا على القلم فينكسر) اخ ، انكسر . (يرميه جانبا ويأخذ قلما من جيبه) قبح الله من باعك اياه . غشك به .

العريس – (يلتقط القلم المكسور) بل قبحك الـــله انت وليس البائع ! كيف كسرته ؟ ولماذا ضغطت عليـــه اكثر من اللازم ؟ هل تدري كم خطأ ارتكبت بعملك هذا ؟

الزائر – كم ؟

العريس – اولا : صرفت مجهودا في الهواء بلا فائدة . ثانيا: استعملت هذا المجهود بانزال الضرر . ثالثا : احتقرت شيئا كان يستحق الاحترام . رابعا : ...

الزائر – (يقاطعه) يا اخي ، بـــلا رابعا بلا ثالثا بلا اولا الان ! قل لي اولا : هل انت مجنون ؟

العريس – (ينظر اليه هنيهـــة بهدوء) كنت اعلم انك سوف تسألني هذا السؤال . استمر .

الزائر – لست مجنونا اذن وتعني ما تقول . قل لي اذن ، في الـ «اولا» التي وضعتها انت : ما هو المجهود الذي صرفته ؟ ما قيمته ؟

العريس – قف ! صرفت مجهودا ام لم تصرف ؟ هذا هو السؤال ، ولم نتحدث عن القيمة بعد . فكرة تفجير القنبلة الذرية فوق هيروشيما كانت فكرة ، وفكرة تفجير بيضة فوق مقلاة هي فكرة ايضا . اصرفت مجهودا ام لم تصرف ، هذا هو السؤال . .

الزائر – (برضوخ) صرفت . قل اذن اعتراضاتي على بنودك الاخرى ، وهات اجوبتك عليها .

العريس – حسنا . كان بالامكان ان يصرف هذا المجهود من غير كسر القلم ايضا . انه خطأ على كل حال ، وكسر القلم هو الخطأ الثاني . اما الخطأ الثالث فهو ان هذا القلم صنع وملىء بالحبر لكي يكتب به ولكي يستعمل حتى النهاية ، لا لكي يرمى قبل ذلك . تقول انه تافه الثمن ، ربع ليرة لبنانية أو اقل ، لا يشتري رغيفا يملأ زاوية في بطن عامل او عاطل عن العمل . عال . هنا ننتقل الى البند الرابع . انتم تعودتم ان تقيموا كل شيء بالمال ، اما انا فلا أتبع هذه العادة . المال بنظري لـــه قيمته فقط . عجبا للناس : وضعوا المال لكي يمثل قيمة الاشياء ، فاذا به يصبح الشيء الوحيد الذي لـــه قيمة ، وبقية الاشياء لا قيمة لها خارجا عنه . لكن مالنا ولهذا الان . انا لست رجل اقتصاد ولا رجـــل علم . انا رجل حياة ، عشت ورأيت ، وها انا اتكلم . قد تحسبني مجنونا اذا قلت لك اني اقيم المال بالاشياء ، وليس الاشياء بالمال كما يفعل الناس . انا وحدي افعل هذا ، ولا يهمني اذا فتحت بهذا العمل بابا لان يسلبني الاخرون حقي او يعتدون علي ، او يسخرون بي . أذ ن، اذا تحدثت عن هذا القلم يا صاحبي ، فليس على انه يمثل ربع ليرة لبنانية ، بل على انه يمثل صفحات وصفحات كان بالامكان ان يسودها . وقيمة تلك الصفحات من يعلم ما هي ؟ من يستطيـــع ان يعلم ؟ من يقدر ان يعلم حقيقة الحب الذي تكنه ام لوليدها اكثر من الأم نفسها ؟ من هنا تستطيع ان تعلم قيمة الجرم الذي ارتكبته نحوي يا اخي وصديقي .

الزائر – عذرا عذرا . فعلا اسأت اليك كثيرا . سامحني اذا كان هناك مجال للمسامحة . (يمسك بالقلم المكسور ويحاول ان يجبر كسره بيده) عندي في البيت مادة تلصق هـــذا النوع من الزجاج . اسمح لي ان آخذه معي وفي الغد اعيده اليـــك صحيحا كما كان .

العريس – تريد ان تلصقه ، اليس كذلك ؟

الزائر – طبعا .

العريس – قل لي: كم ثمن القمقم من تلك المادة ؟ وكم ستصرف مـــن جهد في الصاقه ؟ وكم ستصرف من وقت ؟

الزائر – (يضحك من نفسه) معك حق . معك حق . لم يبـــق لي الا الاعتذار اذن ، هل تعذرني ؟

العريس – اعذرك ؟ لماذا اعذرك ؟ ماذا يفيدك عذري ؟

الزائر – (بعصبية) اف اف . ماذا اقول اذن ؟

العريس – من يطلب منك ان تقول شيئا يا صديقي ؟ الا تستطيـــع ان تفكر خارج المال ؟ عودكم المال ان لكل شيء قيمة ، ومـــا لا تستطيعون ان تعوضوا عنه بالمال، تعوضون بالاعتذار وهذا خطأ .

الزائر – خطأ ؟

العريس – طبعـــا . انت تطلب عذري لانك تضـــع امامك هـــذه الصفحات الطويلة الثمينة التي كـــان بامكاني كتابتها لولاك . لكن امر هذا

القلم انتهى ، وامر تلك الصفحات لم ينته بعد ، ولا علاقة له بها ابدا. اني اشرح لك طريقة تفكيري فقـــط ، ولست اقيم شيئاً ولا ادعوك الـــى تقييم شيء . كل شيء كان قد فقد قيمته بنظري عندما تركتني ، هـل تذكر ؟ لم يبق حتى للانسان قيمة ، فهل يكون للزواج قيمة ؟ (ناظرا الى الخاتم في اصبعه) شيء مضحـك ! انت الوحيد الذي كان يعلـم سبب عزوفي عن الزواج في ذلك الحين ، والان انت الوحيد الذي يعلم سبب عزوفي عن ذلك العزوف ، ام انك لم تعلم بعد ؟

الزائر — (يقلب شفتيه) علمت وما علمت . اذا قلت لي بصراحة يكون افضل .

العريس — يا اخي : بعد ان فقد كل شيء قيمته بنظري ، عدت ورايت لكل شيء قيمة . اعني اني ابتدات من الصفر ، وقد يكون للصفر حتى الان قيمة بنظري مثل قيمة الالف . هل فهمت ؟

الزائر — فهمت ؟ وماذا فهمت ؟ اذا كنت قد فهمت شيئا قبلا ، الان جهلته . اعتقد انك تريد ان تشرح لي سبب زواجك ، اليس كذلك ؟

العريس — (بصبر واناة) اجل يا صاحبي . اريـــد أن اشرح سبب زواجي .

الزائر — دعني اساعدك واقــــول لك ما فهمته . انت لم تتزوج بسبب خوفك من الشيخوخة والعجز فـي نهاية عمرك ، ولا بسبب شوقك الى المراة والى الحياة العائلية . صح ؟

العريس — كمل .

الزائر — صح ؟

العريس — صح .

الزائر — الواقع انه لا بد ان يكون لهذين السببين تاثير عليك ايضا ، وان تأثيرا خفيا او لاشعوريا ، اي فـي عقلك الباطن كما يقولون . لكن انـا ابحث عن السبب المباشر . والسبب المباشر هو .. هو ... اعترف اني لم اعرفه بعد !

العريس — لم تعرفه بعد ؟

الزائر — لم اعرفه .

العريس — (موجها نحو الخاتم الذي يلبسه في احد اصابعه) لـم تعرفه بعد ؟

الزائر — كلا . ما هو ؟ (ينتبـه لحركته) ما هذا ؟ خاتـم الخطبة ؟ دعني اراه . (يأخذه منه ويتفحصه) عظيم ! عظيم ! فصه مـن الالماس ، اليس كذلك ؟ كم دفعت ثمنا له ؟ لا لا ، لا تقل لي . دعني اثمنه انا اولا . هذا الخاتم يساوي ... يساوي الف ليرة . هل اصبت ؟

العريس — (مشدوها) كم ؟ الف ليرة ؟ (يأخذه منه وينظر اليه) .

الزائر — هل اخطات ام اصبت ؟

العريس — لا ادري ، ارجـو ان تكون اصبت . ثمنه لي احدهـم البارحة بثلاث ليرات .

الزائر — (بدهشة) كم ؟ ثـلاث ليرات ؟ دعني اتأمله مرة اخـرى . (يأخذه منه) غلطان من ثمنه لك بثلاث ليرات . كم دفعت انت ثمنا له ؟

العريس — لم ادفع ، وجدته في الشارع .

الزائر — وجدته في الشارع ؟ على كل حال ، لا اتراجع عن كلامي . هذا الخاتم يساوي الف ليرة (يعيده اليه) والان ، ما هـــو السبب المباشر لزواجك ؟

العريس — (مصعوقــا) السبب المباشر لزواجي ؟ لحد الان لم تعرفه بعد ؟

الزائر — لحد الان ؟ ماذا قلت لي لحد الان ؟. كل ما قلته انك عثرت على هذا الخاتم في الشارع ولم تدفع ثمنه ، وان احدهم ثمنه لك بثلاث ليرات . هذا كل ما قلته ، فما علاقته بقضية زواجك ؟

العريس — الخاتم ، اليس له علاقة بقضية زواجي ؟

الزائر — طبعا له علاقة . انـه خاتم خطبة ، ثم خاتم زواج . وقد وفر عليك ثمن خاتم ، كائنا ثمنه ما كان . لكني ابحث عن السبب المباشر الصريح لزواجك. ما هو ؟ (لا جواب) كل معارفك تألبوا عليك في الماضي ، واهلك ، واصدقاؤك ، ومحبوك، حتى ان والدتك بكت على قدميك لكـي تجعلك تتزوج ، لكن عبثا . ما هـو السبب الذي اقنعك الان ان الزواج لا بد منه ؟

العريس — الزواج لا بد منه ؟ من قال لك اني اقتنعت ان الزواج لا بد منه ؟

الزائر — لم تقتنع ؟ لماذا تزوجت اذن ؟ بالله عليك لماذا تزوجت ؟

العريس — (يهز كتفيه) الصدفة . الصدفة شاءت هكذا .

الزائر — الصدفة ؟ ما دخـل الصدفة بالامر ؟؟ .. تعني انـك عثرت على الفتاة التي نقول عنهـا نحن نصفنا الاخر ؟

العريس — (بائسا منه) اوه مـا ابعدك عني وما اقصرك من انتفهمني! قلت لك اني قيمت الاشياء من جديد. قلت لك اني تخلصت من قيم المال . انا طبعا لا ازال احب المال ، وارجو ان يكون تقديرك لثمن هذا الخاتـم صحيحا . لكن ليس هذا قصدي ، ولا يهمني الثمن بمقدار ما يهمنـي الخاتم نفسه والفرض الذي صنـع لاجله . هذا القلم (يمسك القلـم المكسور) يساوي بنظرك ربع ليرة فقط ، اللهم اذا كان جديدا وسالما ! اما بنظري فقد عرفت ما هي قيمته. هكذا اريد ان يكون لكل شيء قيمته الخاصة الحقيقية ، وليس اي قيمة اخرى . فلا اريد ان يتلف شـيء ويرمى في الشارع ، لا قلم يمكن ان يكتب ، ولا سيكارة يمكن ان تدخن ، ولا كسرة خبز يمكن ان تؤكل ، ولا خاتم خطبة يمكن ان تلبسه فتاة...

الزائر — تعني لانك عثرت علـى خاتم خطبة تزوجت ؟ يا مجنون !..

جرجي نقولا



١ ـ صدق

وابل من مطر مر ، هو الليل بسجني
وصبيب اشوق والحمى يندي ثوب حزني
ودموع القمر المقتم ،...
... اذ تنشق رملا وغبارا
هو بيتي ،
حين يمتد قفارا
عبر اسوار من الموت ..... ويمتد صحارى
هو بيتي .
ذلك الواقف كالتنين ، يمتص سنيني
ويمد المخلب الازرق ، كي تخبو نهارات جبيني
ربما اشتاقتك ـ عند الليل ـ عيناي ..... فاغفو
كالندى ، فوق ذراعيك ...
.... وباب الغرفة ـ العش عن الدنيا يشف
ربما كان ...
ولكني على عينيك ، لا أصلب مجدا
لا أبيع الامل الغالي !...
لكي أسفح من أجلك أقمارا ، ووردا

٢ ـ ((الموت : فارس الحصن المهان !))

ايها الموت ـ الضنى ، لم ينسكب طينك في الصدد ...
.... فتخبو النجمة ، الأم ، كفانوس حزين
لم يجف الجدول الموغل ـ كالحب الجليدي ـ ولم تطمره
أوراق السنين
لم تمت شمس الوجوه الخضر في الساحة ـ كالجرذان ـ ...
.... فلتافل وجوه الميتين
ايها الحصن المهان
ايها الموت الخرافي ...
سترتد على العتبة اذ تاتي
فتنهاد كسور من دخان
ايها المسك كالفارس ! ،
في كفك سيفا من رماد
لم تكن في لجة الأسفار يوما سندباد
لم تكن شيئا ....
فتخشاك العصافير ، ويخشاك الجراد
عد الى قمقمك القبو ...
فسوق الوهم غطاها ، وأعياها الكساد

العراق — خالد الخشان



شعر الراعي النميري وأخباره

جمعه وقدم له ودلق عليه الدكتور ناصر الحاني ـ راجعه وجمع شواهده ووضع فهارسه عز الدين التنوخي ـ ٢١٥ صفحة ـ منشورات

المجمع العلمي العربي بدمشق

كان السياسي الكبير « بول كلوديل » سفيرا . وكان شاعرا وكاتبا أديبا مشهورا ، وكادت شهرته في الأدب تلقي ظلالها على شهرته في السياسة . وكنت أوثر أن أتتبع اخباره . وقد عاش في تمجيد مواطنيه ، يعترفون له بادبه ، ويقدرونه قدره في عمله الدولي .

ولما عرفت الصديق الدبلوماسي الدكتور ناصر الحاني سفيرا ، وكنت أعرفه أديبا جامعيا ، ورد مناهل النيل في دراسته العالية ، هششت لموهبته في السياسة والأدب ، وكنت أشعر منذ ابتعدت عن السياسة ، وجعلتني أتقرب من الادب ، في مستهل الشباب ، أنني ما خلقت لها ، لكني كنت حيث أجد سياسيا اديبا ، أحس بحنين اليه ، لأجد فيه ما فقدت في نفسي .

وكان السفير « الحاني » يشعر مني بذاك ، حتى اذا بعدت به نوى قذف هيهات مصبحها من بعد ممساها ، وأطلع المجمع العلمي العربي بدمشق في مطبوعاته الطريفة كتاب « شعر الراعي النميري واخباره » الذي جمعه ، وقدم له وعلق عليه الدكتور ناصر الحاني ، تلقفت الكتاب شاكرا للمجمع هديته .

والشاعر الأموي الراعي الذي توفي سنة ٩٠ للهجرة ليس غريبا عني ، فلقد قرأت ملحمته ـ بضم الميم ـ وهي الوصف الذي كان يطلقه نقاد العصور العباسية الأول على القصيدة الكبرى المنسوجة كلحمة الثوب وسداه ، وقد كان استاذنا أحمد الشايب في الجامعة المصرية يحلل هذه القصيدة ويشرحها ، في احكام لم يكن مثله عند السابقين ، ولا جرى على غراره « أبو سعيد السكري » راوية الدواوين حين روى شعر الراعي .

وكنت أقول ما كان أجدر الراعي بمن ينشر سائر شعره ، فانه عاش مغدورا ، ولم ينل في حياته الشعرية سوى الغبن ، حتى أتيح له من دهره منصف في الدكتور الحاني الذي جلا في مقدمته حياة الشاعر الراعي ، وقرر منزلته الحقيقية في الشعر العربي ، في عهد كان فيه الشعراء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل قد استولوا على أمد الشعر فلم يتركوا على خوان مادبته لقمة لغيرهم يتبلغ بها . ولم يكتفوا بذلك وانما سدوا منافذ الطريق في الشعر العربي ، عصر بني أمية على سواهم ، ووضعوا الشوك في دروب الشعراء الذين يريدون ليظهروا في عالم السياسة ، فاغلقوا عليهم الباب وكادوا يغلقونه في عالم الادب ، لولا أن نبغ من الشعراء الامويين جماعة من الموهوبين الغزلين كابن أبي ربيعة المخزومي ، وجميل وكثير والشاعر نصيب والراعي والعرجي .

ولقد وقفت طويلا عندما أفاض الدكتور الحاني فيما جرى من التخالف بين الراعي وجرير ، حين شهد الراعي بتفضيل الفرزدق على جرير ، وكان تد مال هذا الميل بتاثير من ابنه « جندل » . وكان أمثال هذه الشهادة يجر تهديم الدار على الشاهد ، فكأي من شعراء مسوا كهرباء واحد من الشعراء الهجائين ، فانتفضت اعصابهم ـ على نحو ما نقول في حضارة عصرنا في الكهرباء ـ وقد مس الشاعر الراعي جريرا في بهرة صيته وشاعريته ، فعظم عليه منه البلاء ، فراح جرير يهجوه بقصيدة فيها بيت واحد سار مسير الركبان في كل مكان وهو :

ففض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ويصور الدكتور ناصر الحاني كيف كان وقع هذا الهجاء المرير على الشاعر الراعي النميري وكيف غمه هذا الحادث حتى كان سببا في كمده ، فمات في السنة نفسها التي ظهرت فيها تلك القصيدة ، وفيها ذلك البيت اللعين .

وقد دعوته اعينا لان الادب العربي نفسه في العصر الاموي ، لم يكن حرا فكان مربوطا بعجلة السياسة ، كما نقول في لغتنا المعاصرة .

وكانت الاحكام الادبية في العصر الاموي وفي حلقات الدرس والبحث في العصر العباسي اذ قامت في الكوفة او البصرة ونهض بها ابو عمرو بن العلاء شيخ النقاد الاول ، وكم اجده معتدلا في نقده على حين نجد ابا عبيدة معمرا بن المثنى وابا زيد الانصاري وعبد الملك بن قريب الاصمعي ، وسواهم ، يشحذون مداهم لذبح شعراء وادباء في تفضيل بعضهم على بعض ويعتبر تاريخ الادب هذا التفضيل ، ويسجله على الشعراء والادباء المغبونين ، وكانه مياسم كاوية على اجسامهم ، كما كانت تكوى الابل بالميسم ليعرف بعضها من بعض .

فاذا كوى جرير بذلك البيت الهاجي المقيت شاعرا كالراعي صار ذلك عهدا وميثاقا في رواية الشعر ، وهذا البيت خاصة ، حتى فلقل هذا الهجاء بني نمير جميعا وكسر شوكة شاعرهم الراعي ، واخرجه من نطاق الشعراء الفحول .

اني لست اقبل في عصرنا تلك الاقيسة في النقد ومياسم الهجاء ، فان الشاعر الراعي كان حرا ينزع الى الصراحة ، وابان رأيه في تفضيل الفرزدق على جرير ، وهبت قبيلته تسانده في محنته ونهوه عن الاعتذار الى جرير اليربوعي ، ولم تكن قبيلة يربوع باكرم من نمير عند الفرزدق ، وكانوا في الجاهلية سادة اشرافا كما يحقق الدكتور الحاني .

ذلك ما امسك بي في الدراسة التي قدمها المؤلف لشعر الراعي النميري ، اما شعره فذو منزلة سامقة في الفحولة وقوة السبك في اختيار اللفظ والاسلوب الحر المكين ، وهذه المجموعة من شعر الشاعر مرتبة على حروف الهجاء جمعها وعلق عليها المؤلف وحشد شواهدها علامة الشام الاستاذ عز الدين التنوخي ، ونظم لها فهارس علمية تعوز الدارسين الجامعيين .

كتبت هذا وانا افكر بادباء العراق واسأل نفسي ـ ألا يزال فيهم اديب واحد يعتب علي بانني لا اكتب عنهم الا في القليل . ولعل الكاتب الفذ الاستاذ عبد الخالق عبد الرحمن الذي انصفني من ذلك العتاب ، يجدني مع صحبه الادباء الموهوبين ، كاتبا في ادب العراق .

دمشق — **زكي المحاسني**

●

الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين

تاليف كامل السوافيري ـ ٦٦٠ صفحة حجم كبير ـ منشورات

مكتبة نهضة مصر بالقاهرة

منذ ان وقعت المأساة الفلسطينية والاقلام العربية في كل مكان من ارض العرب لا تفتر عن الكتابة فيها : نثرا وشعرا . فالمأساة مصدر وحي كبير

لاخيلة الشعراء ، ولاقلام القصاصين والباحثين والكتاب . ولا اعرف قضية اخرى في العالم العربي نالت من اهتمام ارباب القلم مثل ما نالت قضية فلسطين ، والنكبة الفلسطينية .

والذي يحاول انيتقصى نتاج الاقلام العربية كلهفي القضية الفلسطينية فقد يضيع العمر كله دون ان يصل الى ما يريد ، وذلك لكثرة ما كتبوا فيها ، ولوفرة ما كتبوا في الكتب ، والصحف ، والمجلات ـ بغض النظر عما اذا كان في كل هذا الذي كتب حتى الان ما يصل الى مستوى المأساة نفسها ام لا ... ـ يضاف الى هذا ان للنكبة جذورا غير قريبة ، ترجع الى امد ابعد كثيرا من تاريخ وقوعها ، وان الكتابة قد رافقت كل مراحل القضية : منذ ظهور هرتسل والمؤتمر الصهيوني الاول ، الى الانتداب البريطاني الذي كان حجر الاساس في النكبة ، الى النكبة نفسها ، ثم ما بعد النكبة حتى اليوم . وستظل الاقلام تكتب في النكبة وفي القضية الفلسطينية ما دامت النكبة قائمة ، وما دام الحق السليب سليبا ، والارض المغتصبة مغتصبة ، والشعب المشرد مشردا .

على انه ، اذا كان تقصي كل ما كتب في القضية والنكبة مستحيلا ، فان من الخير ان يحاول الباحثون تسجيل جوانب منه تسجيلا يبين مدى الاثر الذي احدثته النكبة في الامة العربية باسرها ، لان الادب صورة الامة ، وهو التعبير المباشر عن شعورها .

عى هذا الاعتبار نجد ان من اهم الكتب التي ظهرت في ابراز اثر المأساة في الحركة الادبية في العالم العربي ، الكتاب الجامع الشامل الذي اصدره صديقنا الاديب الفلسطيني الاستاذ كامل السوافيري بعنوان « الشعر الحديث في مأساة فلسطين » .

لقد اقتصرت هذه الموسوعة السوافيرية الضخمة على دراسة اثر النكبة في الشعر وحده ، ولم تتعرض لبقية الالوان الادبية التي اشتركت في تصوير المأساة ، وفي التعبير عن عمق اثرها في نفوس العرب في سائر اقطارهم . ولو شاء السوافيري ان يتعرض لكل ذلك لاحتاج الى عدد كبير من الموسوعات من نوع موسوعته هذه ، والى عمر آخر كعمره للدرس والتدوين .

لقد استعرض الاستاذ السوافيري قضية فلسطين ومحنتها في كتابه هذا استعراضا يدل على وعي وشمول ، وعلى دراسات واسعة لمختلف مجالات القضية وجوانبها : السياسية ، والاجتماعية ، والادبية ، والاقتصادية ، والتاريخية . كما استعرض ما قيل في القضية والنكبة من شعر في فلسطين وفي سائر الاقطار العربية .

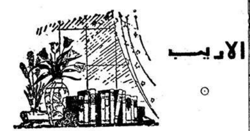
واذا كانت المصادر موفورة لديه في ما يتعلق بشعر الشعراء الفلسطينيين والاردنيين بشكل خاص ، فان المصادر الاخرى المتعلقة بشعر غيرهم من شعراء الاقطار العربية الاخرى قد توافر لديه كذلك بشكل يكفي لاعطاء الكثير من الشواهد والامثلة على مساهمة شعراء العالم العربي الكبيرة الواسعة المدى في ابراز اثر النكبة في عالمهم الكبير كله .

ولقد استغرقت هذه الموسوعة من الاستاذ السوافيري جهد اعوام طويلة متواصلة في الجمع ، والبحث ، والتنقيب ، والتعليق ، والاستشهاد ، حتى جاءت موسوعته هذه مرجعا كبير الاهمية في موضوعها الواسع .

يبدأ الكتاب بمقدمة طويلة يشرح فيها المؤلف دوافع الكتاب ، ومراحل تاليفه ، واغراضه . ثم يليها لمحة تاريخية عن فلسطين قبل المحنة . وهذه اللمحة تتعرض تعرضا سريعا لصلة اليهود المزعومة بفلسطين .

وبعد ذلك يجيء القسم الاول ، ويتالف من بابين وسبعة فصول ، تتناول مقدمات المحنة واسبابها ، والحديث عن الصهيونية العالمية ، وتصريح بلفور ، وعن فلسطين في ظل الانتداب البريطاني ، وادوار الكفاح الفلسطيني ، وموقف الشعر من القضية الفلسطينية من عام ١٩١٧ الى عام ١٩٤٧ . وهذا القسم يكاد يقتصر ، الى حد كبير ، على شعراء فلسطين وحدهم ، اذ لم يشترك فيه الاخرون الا في حدود قليلة .

ثم يجيء القسم الثاني ، ويتالف من بابين وتسعة فصول ، تتناول



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩ Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

المأساة منذ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ الى ٣١ ديسمبر ١٩٥٥ ، والادوار التي مرت بها قبل دخول الجيوش العربية الى فلسطين وبعده ، وتتناول الشعر العربي خلال تلك الفترة ، سواء منه شعر الفلسطينيين انفسهم ، وشعر ابناء الاقطار العربية الاخرى كلها . ففي تلك الفترة اشتركت اقلام شعراء العرب جميعهم في تصوير الثورة ، والنقمة ، والالم التي رافقت النكبة وتطوراتها .

لقد سجل السوافيري في كتابه هذا تاريخ القضية الفلسطينية تسجيلا موجزا من الجانب التاريخي والسياسي ، اما من الجانب الشعري فقد جاء كتابه جامعا شاملا ، يدل على ضخامة الجهد ، وغزارة المادة ، كما يدل على الجلد الكثير في الدراسة ، والتنسيق ، والانتقاء .

ويضاف الى فضل المؤلف في ابراز اثر النكبة في الشعر العربي ، وتقديمه الكثير جدا من الشواهد التي يحتاج الباحثون الى الرجوع اليها ، ويجدون فيها العون الكافي ، فضل آخر يستحق الاشادة ، وهو فضل تعريفه بأسماء الكثير من الشعراء الفلسطينيين والاردنيين الذين يجهل الكثيرون في العالم العربي انهم كلهم من ابناء ضفتي الاردن ، واستشهاده بالكثير من شعرهم قبل النكبة وبعدها . لقد استشهد السوافيري بالكثير من شعر ابراهيم طوقان ، وفدوى طوقان ، وابي سلمى ، ومحمود الحوت ، وكمال ناصر ، ومحمد العدناني ، وعبد الرحيم محمود ، وسليمان التاجي الفاروقي ، وابراهيم الدباغ ، وبرهان العبوشي ، ووهيب البيطار ، وابراهيم القطان ، واسكندر الخوري ، ووديع البستاني ، وفتح الله السلوادي ، وهرون هاشم رشيد ، ومصطفى زيد الكيلاني ، وسميره ابو غزاله ، ومحمود نديم الافغاني ، ومحمد رجا السمرين ، وعصام حماد ، ودعد الكيالي ، وعلي هاشم رشيد ، ويوسف الخطيب ، ومحمد العمد ، واحمد يوسف ، وخالد نصره . وجميع هؤلاء ، وسواهم ، هم من ابناء ضفتي الاردن ، وممن كانت النكبة نكبتهم وكانت آثارهم في نفوسهم اعمق منها في نفوس سواهم لانهم اكتووا بها مباشرة .

لقد كانت موسوعة السوافيري هذه في الاصل رسالة للماجستير تقدم بها الاستاذ السوافيري ، ولكنها في الواقع جهد ضخم يستحق عليه كل الشكر ، فقد قدم به خدمة ادبية ووطنية كبيرة للقراء في ارجاء الوطن العربي . ان في كتابه هذا تبصيرا وتوعية ، الى جانب ما فيه من الزاد الادبي الوفير ، ومع التبصير والتوعية اعداد وشحذ للهمم .

حياه الله ، وبارك في جهده الخير المثمر .

عمان — عيسى الناعوري

●

مشوار طويل

مجموعة قصص – تأليف عبد المعطي المسيري – ٩٦ صفحة – منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة – مطبعة مصر بالقاهرة

لا شك ان اي حديث يدور حول انتاج فني لعبد المعطي المسيري ، يجب ان يتناول الرجل قبل كتابه ، لا بحسبان الصلة الوثيقة بين الفنان وانتاجه . بل لان المسيري ظاهرة ادبية لا تتكرر كثيرا – في ج. ع. م. وخاصة في الاقاليم . لقد اضاء هذا الاديب عقولاً كثيرة تشابه بما كان يبثه فيها من حب الثقافة والفكر والانسان . ولم تقفه العوائق التي وأدت امثال هذه العقول في غير دمنهور من المحافظات ، فكان له الفضل في ان يتخرج على يديه في قهوته المشهورة التي تعد بحق جامعة شعبية غير رسمية ، اكثر من جيل له مكانته في حياتنا الثقافية عامة . وهو ما كان يرنو الى مثله الآلاف من شباب المحافظات الاخرى ولا يجدونه .

هذه كلمة لا بد منها ، قبل ان نتحدث في هذا المكان الضيق عن المسيري ومجموعته القصصية الجديدة « مشوار طويل » . ويتألف هذا الكتاب من تسع قصص وتمثيلية واحدة قصيرة .

ويتميز عبد المعطي المسيري بروح مرحة تضفي على قصصه او صوره – ما كان احرى بمؤلفنا ان يفرق بين هذه القصص والصور حتى لا يختلط الامر على القارىء ، كما فعل الاخير ازاء « الرجل والبندقية » مثلا ! – الكثير من الاشراق والبهجة كما في « من ايام الطفولة – الرقيب – اهل الكهف » .

الاولى عن ذكرياته لهذا العمر الاخضر ووسائل التخويف التي كانت تلجأ اليها عمة الراوي كأداة لتربيته ، والثانية عن جهل الرقيب اثناء الحرب وهو يعتقد ان كل ما يكتبه القصاص حقائق مؤكدة وحوادث واقعية ، فيتهم الرواي الرواسي بما في قصته من اشعال النار في دكان خياط ! والثالثة عن اتهام وجهه اليه البعض بتهديده بالاغتيال . ولم ينقذه منه الا وكيل نيابة اديب ادرك ان الكاتب اي كاتب لا يهاجم بيده وانما يحارب بقلمه .

ومن القصص الطيب في المجموعة « بائع القصب » التي يصور فيها المؤلف لمحات انسانية عميقة لقروي فقير يبيع القصب . يرفض ان يكافئه اصحاب سيارة مرت في الطريق على معونة اسداها لهم . وكذلك قصة « السمفونية الريفية » التي تأثر فيها بطلها بسميتها تأليف اندريه جيد ، وقد حاول المسيري فيها ان يناقش بعض قضايا الفن مثل الانتاج الجيد الذي يشد القارىء اليه حتى ليتحسر على كل صفحة يطويها !

والقصة الوطنية تأخذ من هذه المجموعة حيزا غير قليل ، فهناك الرجل والبندقية ، مشوار طويل ، رسالة من الميدان) . الاولى تصور انفعالات رجل عجوز يتقد حماسا ، اشترك قبلا في المعارك العربية مثل حرب السنوسيين وثورة ١٩١٩ . ولا تمنعه كهولته من الاصرار على تقديم ضريبة الدم والسفر الى بور سعيد ايام العدوان الثلاثي ليشترك في معركتها .

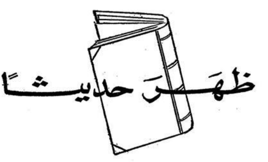
والثانية كذلك تصور اعصاب الناس المشحونة المتقدة بنار الغضب للمعركة الدائرة في بور سعيد ايضا والاشتراك فيها ، يستوي في ذلك الراعي ومتطوع الحرس الوطني .

و « مشوار طويل » التي تقع احداثها على ارض التل الكبير ، تتميز بهذه الظلال القوية الموحية التي يلقيها امس البلدة ، التي عاشت عليها بطولات مصرية ايام ثورة عرابي وفدائية الضابط محمد عبيد الذي تغنى الشاعر البلدي به في ملحمته الشعبية .

والعمل الوطني الثالث « رسالة من الميدان » – تمثيلية ذات فصل واحد ومنظرين – تدور ايضا حول بور سعيد ، مصورة الهزة التي اصابت الشعب كباره وصغاره ، شيوخه واطفاله – رجاله ونساءه من جراء العدوان الغاشم . فاذا بها تبلور وتكشف معدنه النقي الذي تخفيه روتينية الحياة ، فالام التي كانت تفزع من اقل شيء ، اصبح القتال والموت والتضحية والابن الاكبر الذي ياخذ دوره في الصفوف المحاربة ، اشياء لا ترهبها . وكذلك تصنع كل شخصية .

والظاهرة الطريفة التي يلاحظها القارىء على هذه الاعمال الثلاثة ، ان المسيري يختار هامش المعركة لا ميدان القتال نفسه مسرحا لاحداثه ، وكأنه ينتهج منهجا كلاسيا يرفض للدماء المتفجرة واعمال القتل ان تبدو للعيان ..!

ومن قصص المجموعة ايضا ، « يانصيب » التي تحكي قصة فتاة صعيدية فقيرة تبيع اوراق اليانصيب ، زلت فانتحرت واتهم ابوها بقتلها وكان يستطيع ان يبرىء نفسه ولكنه رفض واعترف بقتلها ... « سيقولون انها فرطت بمشيئتها ، ثم ماتت بارادتها . لا . ليقولوا انها فرطت .. ولكن ليقولو ايضا انه انتقم » ! !



● طه الراوي : حياته جوانب شخصيته ومختارات مما قيل فيه ـ تأليف حارث طه الراوي ـ ٣٤٤ صفحة ـ منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ مطابع كوستاتسوماس وشركاه بالقاهـرة .

● مع الشعراء : دراسات وذكريات ـ تأليف حارث طه الراوي ـ تقديم الدكتورة نعمات احمد فؤاد ـ ٢٢٨ صفحـة ـ منشورات دار القلم بالقاهرة ـ مطابع دار القلم بالقاهرة .

● كتب قرأتها ـ تأليف المحامي ناجي جواد ـ لوحة الغلاف بريشة جميل-حمودي ـ ١٠٠ صفحة ـ مع عدة لوحات ـ حجم كبير ـ مطابع شركة دار الجمهورية (؟)

● مع الشهيد الزبيري : منه .. واليه ـ تعريف لعمر بهاء الديـن الاميري ـ مع ثلاث قصائد لمحمد الزبيري وعلي عبد العزيز نصر ومحمد عبده غانم ـ ٤٠ صفحة ـ منشورات لجنة الاعلام لاتحاد القوى الشعبية اليمنية ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الاصلاح الزراعي في تايوان ـ تاليف شن شنغ ـ مترجم عـن الانجليزية ـ لم يذكر اسم المترجم ـ ٤٤٨ صفحة ـ مطبعة سميا بيروت

● قطرات من ظما ـ مجموعة شعرية ـ غازي عبد الرحمن القصيبي ـ ١٣٢ صفحة ـ مطابع دار الكتب ببيروت .

● لالاء القمر ـ مجموعة شعرية ـ الدكتورة عاتكة الخزرجي ـ تقديم احمد حسن الزيات ـ اللوحات بريشة جمال كامل ـ الخطوط بقلم سيد ابراهيم ـ ٨٠ صفحة ـ دار ومطابع الشعب بالقاهرة .

● قصائد سايات نوفا ـ قصائد ارمنية ، جورجية ، اذربيجانية ـ ترجمة رئيف خوري والدكتور ميشال سليمان وارمين تاريان ـ تقديم سعيد عقل ـ مع دراسة تحليلية لوروس هاسراطيان ـ ٩٨ صفحة ـ الناشر . فاروجان طوروسيان ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● البطل اللبناني يوسف فرنسيس الحاج ـ تاليف جرجي ابراهيم نصر ـ ١٢ صفحة ـ مستل من مجلة المشرق ايار / حزيران ١٩٦٥ ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

● الآنية والمواعين في دير الزور ـ تأليف المحامي عبد القادر عياش ـ ٦٤ صفحة ـ مصور ـ مطبوعات مركز الدراسات التاريخية والجغرافية بدير الزور ، سورية ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● حياة مطران ـ تاليف طاهر احمد الطناحي ـ ٤٠٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات الدار المصرية للتاليف والترجمة (؟) ـ دار التعاون الجمعية التعاونية للطباعة والنشر (؟) .

● موبيديك ـ تاليف هرمان ملفل ـ ترجمة الدكتور احسان عباس ـ ٩١٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● تبديد الظلام او اصل الماسونية ـ ترجمة عوض الخوري ـ تحقيق وتقديم ابو صادق ـ ٢٤٤ صفحة ـ دار منشورات البصري ببغداد ـ مطبعة دار البصري ببغداد .

● الالوهة والخطيئة ـ رواية ـ تأليف عبد الاله يحيى ـ تقديم محمد الراشد ـ مصمم الغلاف غسان فتري ـ ١٨٤ صفحـة ـ توزيع دار الكاتب العربي ببيروت ـ مطبعة الوطن العربي بحلب .

● عبارات السلوك عند ابناء دير الزور ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش ـ ٤٢ صفحة ـ مطبوعات مركز الدراسات التاريخية والجغرافية بدير الزور ، سورية ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● معروف الرصافي : دراسة وتحليل ـ تاليف الدكتور ممدوح حقي ـ ٨٠ صفحة ـ منشورات دار اليقظة العربية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعـة) .

● ريلكه ـ شعر ريزماريا ريلكه ـ ترجمة وتقديم الدكتور ممـدوح حقي ـ لوحتا الغلاف بريشة ممدوح حقي ـ ١٨٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار اليقظة العربية بدمشق ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● العروض الواضح ـ تاليف الدكتور ممدوح حقي ـ الطبعة الثالثة ـ ١٦٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار اليقظة العربية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● مرتفعات ويذونغ ـ تاليف اميلي برونتي ـ ترجمة وتقديم الدكتور ممدوح حقي ـ الطبعة الثانية ـ ٤٠٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار اليقظة العربية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ديوان الامير عبد القادر الجزائري ـ شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي ـ الطبعة الثالثة ـ ٢٤٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار اليقظة العربية ببيروت ـ المطبعة التعاونية اللبنانية بدرعون حريصا ، لبنان .

● تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ـ تاليف محمد بن عبد القادر الجزائري ـ شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي ـ الطبعة الثانية ـ ٩٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مع رسـوم وصور تاريخية ـ منشورات دار اليقظة العربية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● قصائد ـ مجموعة شعرية ـ عبد الوهاب البياتي ـ الغلاف تصميم احمد مرسي ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات وطبع مطبعة الدار المصريـة بالقاهـرة .

● قولوا لها ـ قصيدة ـ قبلان مكرزل ـ ٦٤ صفحة ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المدخل الى موسوعة العتبات المقدسة ـ تاليف جعفر الخليلي ـ ٤٠٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار التعارف ببغداد ـ (لـم يذكر اسم المطبعة) .

● موسوعة العتبات المقدسة : قسم النجف ـ تاليف جعفر الخليلي ـ ٣٢٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار التعارف ببغداد ـ (لـم يذكر اسم المطبعة) .

وهناك قصة ثانية تتصل بالشرف ايضا لكن بصورة اخرى وهـي « بيت الحظ » التي تصور حياة اسرة ريفية تعيش مرحة ساذجة قانعة، فالاب يغني على ارغوله وابنته ترقص على موسيقاه البدائية ، واخرى تغني وصغار يكونون ما يشبه الكورس . ولكن قناعة الابناء بفنهم هذا يعتورها فتور شديد عندما يسمعون الراديو في بيت الباشا . ولا يكاد البك الابن يشاهد الفتاة حتى يخير والدها بين ان تخدمه في المدينة ، او ان يطرده من ارضه التي يستاجرها من الباشا .. ويختار القروي الشرف وابنته ويحطم ارغوله !

المنصورة — علاء الدين وحيد

جولة الأديب في شهر

السياحة في لبنان : صناعة من صناعات القرن العشرين

•

تحدثنا في العدد الماضي من « الاديب » عن السياحة في لبنان ، والمسابح الشعبية واطلاق الحركة السياحية ، وامكانيات الجبل . وفي هـذا العدد نتحدث عن : استثمار المواقع الجبلية ، والعمـل في الخارج ، وكيف يعمل المجلس الوطني للسياحة في الخارج .

استثمار المواقع الجبلية :

اما في ما يتصل باستثمار المواقع الجبلية ــ وهـو القسم الثاني من البرنامج الذي ذكرنا ، فانها ترتدي طابعا فريدا طريفا ، له فائدة خاصة .

والامثلة القليلة التي سوف نسردها في ما يلي ، امثلة بليغة بذاتها . وفي طليعتها اصلاح وتجهيز قصر الامير امين شهاب في بيت الدين ، الذي يعود تاريخه الى اوائل القرن التاسع عشر . فسوف يحول جناح من القصر الى فندق يضم ثلاثين غرفة ، على الطراز اللبناني الذي كان شائعا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

الى جانب الفندق ، يجب توفير مكتبة ، وقاعة معلومات واعلام ووثائق شرح هذه المرحلة من مراحل التاريخ اللبناني ثم قاعة محاضرات لعقد مؤتمرات ثقافية دولية ، وقاعة موسيقى طلقة . كذلك تعرض في القصر الاشياء والوثائق التي ترجع الى عهد الامراء .

وكل ذلك من اجل خلق بيئة تمثل ذلك العهد حتى الطعام المقدم فانه يذكر بالطعام الذي كان يطبخ في انحاء الجبال من مئة عام . والخدم الذين يدورون حول الموائد يرتدون لباس القصر . الى جانب ليال فولكلورية ومباريات وفروسية وبتنزيه السياح على ظهر خيول مطهمة . وفي جناح آخر ينشأ مركز للآثار وللوثائق التاريخية .

ــ في دير القمر تعد بناية القيصرية لايواء الشباب حتى المئة نسمة .

اما مخازن الاتجار الحريـر فستتحول الى قاعـة محاضرات او مكان لقاء جميع شباب العالم .

ان قصر القيصرية هو القصر الاول للامـراء اللمعيين واشهر هؤلاء الامير فخر الديـن مؤسس لبنان العصري مطلع القرن السابع عشر) اما في طرابلس فان مواجهة خان المنزل (القرن الثالث عشر) التي اشترعت حجارتها ولكنها حفظت ، فسوف ترمم وتلحق ببناء فندق تستوحى هندسته من خرائط الخان .

ثم ان ادارة الآثار ستضع في تصرف المجلس الوطني للسياحة حجارة من طراز القـرن الثامن عشر على مقربة من الخان كي تتحول الى فندق والغاية من ذلـك خلق جو الخانات التي مضى عليهـا ٧٠٠ سنة .

واخيرا فان ممرات جعيتا العليـا ستصلـح بحيث تبقى مفتوحـة للمتفرجين في ايار سنة ١٩٦٦ .

ان تحسين الاماكن الاثرية (مشروع الخمس سنوات) سيغذى من حصة الدولة من واردات كازينو لبنان (٢٥ ٪ من هذه الواردات . وفي السنة الاولى رصد اعتماد قدره ١٦٥٠٠٠٠ ليرة لاجل مشاريع خان المنزل في القيصرية ولقصر الامير امين .

وعندما يعلم المواطنون ان موارد السياحة اسهمت عام ١٩٦٤ في الدخل الوطني بمبلـغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ لـيرة يدركون ان ما من توظيف مالي كان اخصب مما انفقت على تعزيز السياحة .

العمل في الخارج

والى جانب هذا النشاط في الجهاز الداخلي يضاعف مجلس السياحة اسباب الدعاية في الخارج وعلى الاخص في اوروبا الغربية القريبة من لبنان ولا سيما المانيا ففي هذه البلاد ارتفع مستوى الحياة الى حد انه مكن الطبقة الوسطى من الوسائل التي تسمح لها بان تقيم اسبوعين في بلادها . بالاضافة الى ان اجور النقل في المدة الاخيرة تدنت بنسبة محسوسة .

كيف يعمل المجلس الوطني للسياحة في الخارج ؟

في اهم المدن الاوروبية مكاتب على طراز المكتب العامل في فرانكفورت .

اتصالات مستمرة بين وكلاء السفر والشركات السياحية واتفاقات للدعاية مع الصحف ومع شركات العلاقات العامة .

رحلات الى لبنان منظمة يقوم بها الصحفيون ووكـلاء السفر والرجال السياسيون ورجال الاعمال ففي المانيـا نشر حوالي ٦٠٠ تحقيق صحفي وست مقالات على اثـر دعوة صحفيين المان لزيارة لبنان . كذلـك فان المجلس الوطني للسياحة بالتعاون مع جامعة لبنان في العالم يتصل بالمغتربين اللبنانيين في القارات الخمس وهو الذي اشترك بمؤتمر رجال الاعمال سيمثل بفضل م.ل.او. في مؤتمر السياحة الدولية الذي سيعقد في مكسيكو تحت رعاية هيئة الامم . والجدير بالذكر ان المجلس الوطني للسياحة قام بعملين يذكران :

ــ ففي عام ١٩٦٦ سينشأ خطان بحريـان الى بيروت تحمل بواخرها سيارات السياح الذين يرغبون في زيارة هذا الجزء من العالم بما فيه افريقية ، على متن سياراتهم .

ــ ان عدة شركات في ايطاليا وفرنسا تفكر في انشاء مراكز فندقية في لبنان لعمـالها ومستخدميها لقضـاء عطلاتهم فيه .

ان صناعة جديدة ولدت ولا تعيش ولا تنمو الا بعمل فني ودأب طويل .

١ ــ ايها المثقفون اللبنانيون ، اتحدوا

المقال الذي نشرته مجلة «تايم» عن جبران خليل جبران مناسبة جديدة للبحث في موقف الدولة من المثقفين اللبنانيين والثقافة اللبنانية، يذكرنا المقال بحقائق ثلاث :

١ ــ حضور لبنان في العالم ثقافي ، في المقام الاول . فان من يقرأ النتاج الفكري اللبناني يقرأ لبنان : يدخل في ابعاده ، يتفاعل معها ، يصير ، على مستوى الروح ، جزءا منها .

٢ ــ ليس هذا النتاج مصدرا من مصادر الثروة الحضارية وحسب ، وانما يمكن ان يكون ، الى ذلك ، مصدرا من مصادر الثروة المادية . والاحصاءات الواردة في المقال عن مبيع كتب جبران خير برهان .

٣ ــ الدولة اللبنانية لا تقدر اهمية الثقافة في وجود لبنان ومصيره، وهي تقف منها موقفا لا يليق بتراثنا ولا بما نطمح اليه . الثقافة ، كما تراها ، تشب طفيلي ، والمثقفون ، عندها ، «اشياء» غريبة من عالم اخر.

هكذا ، صدفة او قصدا ، تبني الدولة اللبنانية هذا الوطن على مثالها . بالنسبة الى الداخل ، تريد ان يكون غنيمة دائمة بين عدد معروف ، واحد الوجه كثير الاقنعة . وتريد ، بالنسبة الى الخارج ، ان يكون مستودعا مفتوح الابواب للعالم كله ، ان يكون طريقا آمنا للقوافل والبضائع ، مرفأ ضاحكا حتى التهريج في وجه السفن المحملة بالاكداس من كل نوع ، ايوانا مريحا ، فخما ، للزوار والضيوف العابرين .

ان يكون نسخة عن مظاهر الانحطاط في الغرب . (قال لي اكثر من اجنبي : تعودنا عندكم ان نكذب ، ندعى الى لبنان ، فنبتهج ، ظنا منا اننا سنلاقي عالما جديدا يجددنا . لكن، منذ ان نصل ، تصدمنا المفاجأة. نحاط بالاساليب والمظاهر ذاتها التي قرفنا منها في الغرب . نحن نشتاق الى ان نراكم في حياتكم الحقيقية ، الخاصة بكم وحدكم ، الاصيلة ، الصحيحة ، لا في هذه الحياة الزائفة التي تستعيرونها منها . ثم تسألوننا عن انطباعاتنا . ماذا ترانا نجيب ونحن ضيوفكم . انكم تعلموننا الكذب ...)

هكذا تريد الدولة اللبنانية صدفة او قصدا ، ان يكون لبنان . (من المناسب ان نذكر هنا ان الوزارة الحالية ، وهي وزارة مثقفين ، لم تشر بكلمة واحدة في بيانها الوزاري الى الثقافة . المثقفون انفسهم يهبطون ، عند لحظة عجيبة معينة ، في الهاوية التي تتعهدها الدولة وينسون اسماءهم) .

ان ثقافة الشعب ذات صلة جوهرية باستقلال شخصيته وحريتها . ذلك انها تعني تفتحه الاغنى والاكبر . ثم ان ثقافة الشعب هي الاساس الاول للحلول التي يقدمها لمشاكله . ولذلك فان البلاد التي لا تعنى بثقافتها ، لا تعرف كيف تجد الحلول لمشاكلها ، ولا تعرف كيف تعنى باستقلالها ولا تعرف كيف تمارس الحرية . وهذه بلاد بلا شخصية .

هل هذا هو المصير الذي نريده للبنان ؟

ايها المثقفون اللبنانيون ، اتحدوا !

٢ ــ الرغيف والكتاب

تلاقي اثارة القضية الثقافية اللبنانية (لا اعني بالثقافة هنا ، التربية والتعليم ، وانما اعني الجوانب الابداعية من النشاط الفكري) صدى وتجاوبا في اوساطنا الفكرية خصوصا بين شبانها الطالعين .

فهؤلاء يعانون ازمة ثقافية حادة . يرون ، من جهة ، ان تلك الجوانب الابداعية من الثقافة اللبنانية (العلم ، الشعر ، الموسيقى ، الرسم ، النحت ، النقد ، المسرحية ، الرواية ..) اما انه غير موجود ، واما انه نادر جدا . وهذا النادر شبه ضائع في العزلة ، او في طغيان المقاييس الجامدة ، او في طغيان الجهل .

ويرون ، من جهة ثانية ، ان حولهم من يصطنعون قناعا من الادعاء يضعونه على وجه لبنان ثم يضعون لبنان مع العالم ، على كرسي فخم في ايوان الحضارة . فوق ذلك : يصدقون ان هذا القناع هو الوجه الحقيقي . واكثر ، تدفعهم حمى هذا التوهم الى ان يسلبوا الاخرين امجادهم ، ويتبنوها ، بحيث نرى فجأة ، ان هوميروس ، مثلا ، تحول بقدرة الوهم ، وصار لبنانيا !

هكذا نعيش في فراغ مزدوج : منفصلين عن الواقع . منفصلين عن انفسنا . نعيش بلا حقيقة . ويصبح عالمنا الثقافي سطوحا متموجة تغمرها الفقاعات من كل لون !

وفضلا عن ذلك ، وهذا ما يزيد الازمة حدة وعنفا ، يرى شباننا المثقفون الطالعون ان الاهتمام اللبناني العام يتركز على اشكال الحياة ووسائلها لا على جوهرها وغايتها ــ يتركز على الرداء لا الروح ، على الرغيف لا الكتاب ، على كل ما يؤدي الى اعتبار الانسان وسيلة .

طبيعي ان العناية باشكال الحياة وطرائقها امر في غاية الضرورة والاهمية ، لكن هذا يبقينا في نطاق الوسائل . فالغاية هي الانسان ــ تكامل شخصيته وتحقيق ذاته . والاقتصار على الاهتمام بالوسائل ، يؤدي الى اعتبارها غايات ، مما يؤدي بالتالي الى قتل الانسان .

ان علينا حين ناخذ الرغيف بيد ، ان نتناول الكتاب باليد الثانية . ذلك ان محور التقدم ، اخيرا ، يدور حول قضايا الابداع الانساني في العلوم والفنون والفلسفة . فهذه القضايا هي وحدها التي تجعل الانسان سيد تاريخه ، وتمكنه من السيطرة على الطبيعة . وهي ينبوع القيم التي تحفظ تراث الانسان ، وتدفعه الى التجاوز والاستباق ، واضافة ابعاد جديدة الى الحضارة الانسانية . فلا يستطيع اي بلد ان يشعر الشعور العميق الكامل بانه مساو للشعوب المتحضرة المبدعة ، اذا لم يكن قادرا على المشاركة بقيمه الثقافية الخاصة الاصيلة في تراث الانسانية . ذلك ان البلاد التي يقتصر نشاطها الثقافي على الاخذ ، بلاد بلا حقيقة ، ولا شخصية .

لقد برع اللبنانيون في خدمة الوسائل وعليهم الان ان يبرعوا في خدمة الغايات .

«لسان الحال» — ادونيس

تكريم مجلة « الاديب »

وفاء للادب وللحركة الادبية في بلادنا، نستقبل بسرور وتأييد ما يدور، هذه الايام، في اوساط اهل الادب عندنا من رغبة في تكريم مجلة «الاديب» بشخص صاحبها الاستاذ البير اديب.

لهذه المجلة الكريمة دين في اعناق جيل من الادباء اللبنانيين الذين نهضت اسماؤهم والتمعت منذ ظهور التباشير الاولى لفجر الاستقلال الوطني اللبناني ثم منذ اطلالة فجر الاستقلال واشراقته على هذه الربوع وبعثه الحقيقة اللبنانية بوجهها الصحيح الصريح، وما انبعث معها من مواهب جديدة اندفعت للتعبير عن هذه الحقيقة بحرارة وثقة وفرح بالانسان اللبناني الذي اكتشف، في ضوء الحياة الاستقلالية الجديدة، عمق ارتباطه بارض الوطن وتاريخه وتراثه الروحي والفكري وبكفاح الاجيال من شعبه.

ان تاريخ مجلة « الاديب » يقترن في اذهاننا جميعا بتاريخ تلك الحقبة التي اخذ فيها الادب العربي بلبنان ينمو في تربة لبنان المستقل مع نماء الحياة الاستقلالية ذاتها.

كم من الاسماء اللامعة اليوم في اوساطنا الادبية والفكرية، ما يرجع تاريخ تألقها الى يوم كانت مجلة «الاديب» تستقطب في صفحاتها الادباء والمفكرين الوطنيين الاستقلاليين في هذا البلد.

بل، من الحق ان نقول: ان «الاديب» كانت تستقطب في عهدها الزاهر ذاك معظم المواهب الادبية الطالعة عهدئذ لا في لبنان وحده من بلاد العرب، بل في سورية والعراق ومصر وغيرها كذلك، حتى ليكاد يكون من النادر ان نذكر اليوم شاعرا او قصاصا او كاتبا او ناقدا من جيل الشعراء والكتاب والنقاد العرب الذين اخذت تشتهر اسماؤهم منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، دون ان نذكر ان مجلة «الاديب» كانت طريقه الاولى الى الاشتهار في العالم العربي.

ثم جدت احوال وظروف على حياتنا العربية غيرت كثيرا من الآراء والاتجاهات والمفاهيم، فلم يكن للادب الا ان يواكب حركة التغير هذه، والا ان يتأثر بها ويؤثر فيها، ثم ان تتعدد المناخات الادبية والفكرية من اجل ذلك.. ولكن «الاديب» - بالرغم من ان هذا الانقسام وهذا التعدد قد فرضا عليها نوعا من العزلة القهرية عن ساحة المعركة الحيوية الملتهبة - بقيت مناخا ادبيا وفكريا سليما ذا طابع خاص يتميز بالهدوء الى حد التوهم بانه مناخ يقع خارج حدود الزمان والمكان التاريخيين..

لقد كانت عزلة قاسية جدا هذه العزلة التي فرضتها الظروف على مجلة «الاديب»، ولكن صاحبها الكاتب الشاعر المرهف الاحساس المفعم باطيب حوافز الخير الانساني، قد احتمل اعباء العزلة هذه بصبر بطولي، وهذا ما مكن له ان يظل دائبا، من غير كلل ولا يأس، في اصدار مجلته الكريمة، رغم تعاظم المصاعب في طريقه، ورغم تعرض طاقته الجسدية للارهاق الفادح.

اننا نحيي هذا الصمود الشجاع، ونحيي ذلك التاريخ المتوهج الذي انشاه البير اديب بزخم قوي من قلبه وفكره وعزمه وصبره، ونحيي مجلة «الاديب» العزيزة على قلوبنا جميعا.

انه لحق الوفاء علينا للادب ول «الاديب» ان نشارك في تكريم هذا التاريخ الطيب، بكل ما نستطيع من مشاركة.

« الاخبار » حسين مروة

البير اديب : ٢٥ عاما في خدمة الادب

بعد اشهر قليلة تدخل المجلة الادبية الكبرى «الاديب» لصاحبها مفخرة ادباء لبنان الاستاذ البير اديب عامها الخامس والعشرين وهي لم تنقطع عن الصدور عددا واحدا. وتكون بذلك قد برهنت على دأب وثبات رغم ما صادفها من العقبات والصعاب.

واذا قلنا الاديب او صاحبها البير اديب فمعناه اننا امام باعث النهضة الادبية الحديثة ليس في لبنان فحسب، بل في العالم العربي ايضا، حتى ان جميع ادباء العرب الشباب اليوم لا ينكرون انهم تتلمذوا على الاديب، وكانت الاديب اول من حضن انتاجهم واخذت بيدهم، واثرت بهم في نهجهم الادبي وفي توسيع افاقهم وسلوكهم مناحي التيارات العصرية في الادب العالمي، ولا غرو فقد كان صاحب الاديب اول من بذر ارهاصة الادب الرمزي واول من اطلق مدرسة الشعر الطلق، الشعر المتحرر من الاوزان والقوافي مع محافظته على الصور والاصالة الشعرية والمعاني العربية الرائعة، يوم لم يكن هناك احد في العالم العربي يجرؤ على الانقلاب على الشعر القديم او الثورة على قواعد الخليل بن احمد الفراهيدي.

ولا غرو اذا تنادى اليوم فريق من كتاب وادباء لبنان لاقامة مهرجان ادبي ضخم لتكريم البير اديب بمناسبة يوبيل الاديب الفضي، لا بل الغرابة الا يقام مثل هذا المهرجان، او لا تساهم به الدولة كما ساهمت في اقامة مهرجان بشاره الخوري او شبلي الملاط، وكل املنا ان تكون حفلة المهرجان القبلة لتكريم الاديب في مستوى المجلة الراقية التي يصدرها صاحبها في مستوى ارفع الادباء في العالم العربي.. وفي مستوى بيروت التي اصبحت اليوم عاصمة الثقافة والادب والشعر في دنيا العرب.

والسياحة التي تربطها بالاديب اخلص الصداقة واوثق الروابط تضم صوتها الى مكرمي البير اديب استعدادا للمساهمة بكل مستطاعها ليكون مهرجان الاديب مهرجانا للادب العربي المجلي الذي صانته هذه المجلة الراقية طوال الـ ٢٥ سنة من حياة صاحبها.